رسالة في التوبة

تأليف/ د. وسيم فتح الله

رسالة في التوبة

مقدمة:

الحمد لله الحليم الغفور، والصلاة والسلام على نبيه مُحَمَّد على مر الدهور، وعلى صحابته وآله والتابعين لهم على تعاقب العصور، وبعد،

فإن الله تعالى لما خلق آدم وذريته لعبادته هداه لسبيل التزكية والتدسية، وأرسل رسله يعلمونهم أوامر الله ونواهيَه، وقضى الله بحكمته أن يكون بنو آدم خطائين، وأرشدهم برحمته إلى طريق المستغفرين التوابين، ليكون دأبهم – مع التزام طريق طاعته – الإنابة إليه واستغفاره عند مخالفته. ولقد أصبحنا في زمان تراكمت فيه سحب الضلال، وكثرت الفتن بالشهوات والشبهات العضال، وأصبح المسلم بين فريق من ثلاث؛ **أحدهما** مغبونٌ بعمله القليل يحسن الظن بنفسه وهو غافلٌ عن تقصيره فتاره غافلا عن حاجته للاستغفار، **والثاني** مغمومٌ بكثرة معاصيه وذنوبه صغيرها وكبيرها، حتى بلغ به اليأس حداً لم يعد يرى لتوبته محلاً، ولا لاستغفاره أملاً، فاستأسر[1] لليأس والقنوط وترك الاستغفار بالكلية حتى استرسل في أودية المعاصي مستكثراً من ذنوبه لا يرى

[1] أي جعل نفسه أسيراً لها

لنفسه محيصاً من عذاب الله، **والثالث** من لم يرَ عمله شيئاً يُعتمد عليه واعترف بذنبه ومعصيته لله فأقبل عليه نادماً متألماً، وساقه ذلك إلى محراب العبودية منيباً مستسلماً متوسلاً إلى الله بأسمائه وصفاته، يحسن الظن بربه ويسيء الظن بنفسه، فكان الموفق من هؤلاء مَن وفقه الله تعالى فأقر بذنبه واستغفر وأناب، وكان الخاسر من ألهاه طول الأمل وقليل العمل ومن غلبه اليأس والقنوط وفقد الأمل، فكانت الحاجة ماسّةً إلى الارتواء من معين الوحي للاستدلال على طريق النجاة، فإن الله تعالى لما كان وحيه إلى عباده مثاني من الخوف والرجاء، والعقاب والثواب، والوعد بالمغفرة والوعيد بالعقاب، كان من المناسب أن نبين أن محل الخوف والوعيد بالزجر عن المعاصي أولى، وأن محل الرجاء والوعد بالمغفرة على الذنب بعد وقوعه أحرى، فليس هناك تعارض بفضل الله بين نصوص الخوف والرجاء والوعد والوعيد، وإنما هي سعة رحمة الله أن غلّظ جانب الوعيد زجراً للعباد عن الوقوع في المحظور، وغلّب جانب الوعد والغفران لمن زلت قدمه فأذنب وظلم نفسه فعصى ليفر العاصي من الله شديد العقاب ذي الطَول إلى الله الرحيم الغفور. ولما كنت ممن ظلم نفسه بالمعاصي، واستشعرت شديد الحاجة إلى الأوبة إلى الله تعالى، طرقت هذا الباب فوجدته

رحباً فسيحاً، وأحببت لما ذقت حلاوته أن ينال إخوتي في الله منه قسطاً مريحاً، فعزمت على خط هذه الرسالة الموجزة في التوبة، مستأنساً بتصنيف كتاب "التوابين" للإمام الحافظ ابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى برحمته الواسعة، مع تصرفٍ في ترتيبه وتبويبه، واقتصارٍ على النصوص الشرعية الثابتة قرآناً وسنةً دون ذكر شيء من الآثار التي في الصحيح الثابت عن الله ورسوله ﷺ غنية عنها وكفاية، وجعلت الرسالة فصولاً تدبرت فيها مشاهد من توبة الملائكة ثم توبة النبيين ثم مشاهد عظيمة من قصص التوبة في القرآن الكريم دونما استيعاب، ثم ختمت بفصل تناولت فيه بعض نصوص الوحي التي هي قواعد عظيمة في باب التوبة.

ولعمر الحق إننا لفي أمس الحاجة اليوم إلى أوبةٍ صادقةٍ إلى الله عزوجل، وإلى فك رقابنا من أسر المعاصي المتراكمة، وإلى التخلص من ثقل تلك الذنوب الكبيرة الموبقة، عسى أن يكون في توبة أفراد الأمة توبةُ جميعها، وعسى الله أن يرفع بذلك البلاء عن أمتنا ويرفع عنها الذل الذي تكابده جراء تقصيرنا في حمل الكتاب والسنة، وتقصيرنا في الأخذ بالاسباب الشرعية والكونية التي تقيم الدين في حياتنا، وتعين على دعوة الناس إلى ذلك، والله أسال أن يتقبل ما

وفق إليه من صواب، وأن يعفو عما سوى ذلك، وأسأله تعالى أن يجعلني وكل من يقرأ هذه الرسالة من التوابين المتطهرين المقبولين عند الله سبحانه وتعالى، وأن يتوفانا على ذلك، إنه خير مأمولٍ وأكرم مسؤولٍ، والحمد لله رب العالمين.

فصل: في مشهد توبة الملائكة:

قال الله تعالى : (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نُسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا عِلم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم**)[2]، ها هم الملائكة المعصومون من الذنوب، العباد المكرمون، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ها هم يستشعرون تقصيراً في حق الله تعالى فلا يركنون إلى عصمتهم وطبيعتهم المنقادة لأمر الله، بل تسارع الملائكة بتجديد الإقرار بجلالة أسماء الله الحسنى وعلو صفاته حيث تكلمت بما فيه نوعُ معارضةٍ لخبر الله تعالى عن خلقه آدم للخلافة في الأرض، ومن تدبر هذا المشهد من مشاهد التوبة وجد أنه قائمٌ على مراعاة حق الله تعالى وحده، فالملائكة حين تابت إلى الله جل وعلا من مبادرة أمرِ الله بنوعٍ من التساؤل الذي قد يظهر منه ما لا يليق من الاعتراض على أمر الله سبحانه وتعالى، تابت بلسان التسبيح وبحال الإقرار باسم الله

[2] البقرة 30-32

تعالى العليم والحكيم وبصفة الله تعالى العلم والحكمة، وهما الاسمان والصفتان المناسبتان للمقام، فالله أخبر عن خلقه آدم للخلافة في الأرض والملائكة استشكلت هذا الخبر فظهر هذا الاستشكال مظهر الغفلة العابرة عن علم الله التام بما خلق وحكمته التامة لما خلق، وكأنها تقدمت بين يدي الله بعلمها القاصر وحكمتها القاصر، فوجبت التوبة لا من جهة أنها ارتكبت معصية صريحة ولكن من جهة نزولها درجة عن مراعاة حق كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته؛فتأمل هذا المعنى فإنه عظيم.

وإن هذا المشهد القرآني الذي هو أول[3] مشهدٍ من مشاهد التوبة والاستغفار المذكورة في القرآن الكريم ينبه المتدبر على فائدةٍ عظيمةٍ ألا وهي: أن وقوع الذنب من المخلوق وتوبته منه بقدرِ الله سبحانه وتعالى إنما هو أثرٌ من آثار أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، وذلك من وجهين:

- **الأول**: أن وقوع الذنب من المخلوق ناتجٌ عن نقص المخلوق وعجزه في العلم والحكمة والقوة وكلِّ ما يُحتاج إليه من صفاتٍ يدرك بها مفسدة

[3] أعني بالأولية على ترتيب المصحف لا على ترتيب النزول

الذنب أو يتمكن بها من الانتهاء عنه، وفي شهود نقص صفات الخلوق تنبيه على كمال صفات الخالق سبحانه وتعالى.

- **والثاني**: أن وقوع الذنب كوناً وقدراً وإن كان مخالفاً للأمر الشرعي فإنه سببٌ لظهور آثار أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى الغفور الرؤوف الرحيم على سبيل المثال لا الحصر.

فإذا تبين هذا أدرك المتدبرُ لهذا المشهد القرآني أن بين يدي توبة الملائكة إلى الله تعالى مشهداً عظيماً من مشاهد توحيد الله تعالى، ألا وهو توحيد أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، وهي مرتبة إيمانية يرتقي بها المؤمن فوق التعطيل الإبليسي لتوحيد الربوبية الذي يفضي إلى إنكار توحيد الألوهية وإنكار توحيد الأسماء والصفات، كما يرتفع بها درجةً فوق مرتبة توحيد الألوهية الذي يقف فيه نظر المكلف إلى العبادة المجردة وما تجلبه له من نفع وثواب وتدفع عنه من جزاء وعقاب إلى مستوى ذوق حلاوة الإيمان المترتبة على حب الله تعالى بسبب جليل أسمائه وجميل صفاته، فإن من عرف أسماء الله تعالى وتعرف على صفاته أحب الله تعالى ، وهذا هو التوحيد.

إن الملائكة عبادٌ مكرَمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهذه المرتبة – أي مرتبة العبودية المتعلقة بتوحيد الألوهية - ليس للملائكة فيها اختيار بطبيعة خلقتها بل هي[4] مجبولة على ذلك، ولعل كمال توحيد أسماء الله وصفاته وتحقيق اسم العليم والحكيم كان هو الباعث على تنبه الملائكة لزلتها في الأدب مع الله تعالى حين استشكلت خبر الله عز وجل عن أمره في خلق آدم عليه السلام وجعله خليفة، كما أن تحقيق اسم العليم والحكيم كان هو الباعث على المبادرة إلى التوبة والاستسلام التام لأمر الله عز وجل، لأن حلاوة الإيمان وحقيقة التوحيد إنما تكون بالنظر إلى ما يريده المحبوب – سبحانه وتعالى- لا ما يريده المحب وهو المخلوق القاصر الضعيف.

ولعل هذا هو السر في رصد القرآن الكريم لمشهد زلة الملائكة ومبادرتها إلى التوبة تحقيقاً لتوحيد الأسماء والصفات قبل مشهدَي معصية كلٍ من إبليس وآدم؛ تنبيهاً للمكلفين على أن **مراتب الذنوب** تتفاوت؛ بين ذنبٍ يفضي إلى الخذلان ويضيع معه الإيمان جملةً كما هو حال إبليس، وذنبٍ يبقى معه المكلف في دائرة الإسلام رغم خروجه عن دائرة الإيمان حال وقوع الذنب ثم

[4] الملائكة ليسوا إناثاً وكل ألفاظ التأنيث مرجعها إلى تأنيث اللفظ لا إلى أن المسمى أنثى، فليتنبه لذلك

يتوب الله عليه الله فيتوب إلى الله كما هو حال آدم عليه السلام، وذنبٍ هو مرتبة ذنوب المعصومين من أولياء الله تعالى الذين يزيدهم الذنب قرباً من الله وإياباً إليه وفراراً ولياذاً بجنابه، وإنما يطلق على هذا النوع اسم الذنب والمعصية تجوزاً كما هو حال الملائكة والأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله تعالى لرسالته، ولكن قد يقع منهم ما هو خلاف الأولى، فلا يلبث أن يبادروا إلى الاستغفار والتوبة لما تحقق لديهم بفضل الله تعالى من تحقيق مرتبة توحيد أسماء الله وصفاته، فواحدهم يذنب بالمعنى الذي ذكرنا وهو يحب الله تعالى ويؤوب سريعاً إليه لأنه يرى ذنبه تقصيراً مع ما يجب لله تعالى من مقام المحبة المترتبة على شهود أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقد جعل الله تعالى هؤلاء بحكمته أسوةً لمن دونهم من المؤمنين ليتعلموا سنن التوبة والاستغفار، وليتعلموا كيف يكون الفقر إلى الله تعالى والإياب إليه، ولعلنا نأتي على مشاهد من هذا مما سجله القرآن الكريم من استغفار وتوبة وأوبة أنبيائه ورسله إليه في أحوالهم تلك، وإنما أردت التنبيه على هذه المرتبة لأبعث الأمل في نفسي وفي نفس كل من يقرأ هذه الرسالة على أن من وراء الذنوب حِكماً جليلة قدّر الله وقوع الذنب لأجلها، وأن من وراء الذنوب ربّاً عظيماً جميلَ الأسماء جليلَ الصفات،

فلا يقعن أحدنا فريسة القنوط واليأس لذنبه فيغفل عن جميل أسماء الله وجليل صفاته التي تظهر آثارها عند الإيمان بسعة رحمة الله لنا وعند سرعة البدار إلى التوبة والاستغفار، نسأل الله أن يجعلنا ممن وفقه لذلك ولم يسلمه لذنوبه ومعاصيه.

فصل: في مشهد خذلان إبليس وعدم توفيقه للتوبة

قال الله تعالى: **(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)**[5]، إن المتدبر لهذا المشهد القرآني الذي سجل معصية إبليس اللعين لأمر رب العالمين ليجد سراً عجيباً من أسرار التوفيق للتوبة أو الخذلان عنها، وهو سرٌ يتعلق بحال المكلف من حيث المعتقد القلبي حال وقوعه في المعصية؛ **فالعصاة حال معصيتهم على ثلاث مراتب:**

- **أولها:** حال المعصية مع استحضار الشعور بخطأ المعصية، ولكن يخذل المكلف مع ذلك عن صيانة نفسه من مقارفة الذنب، وهو في ذلك يشعر بألم المعصية ابتداءً وهو يقارفها.

[5] البقرة 34

- **والمرتبة الثانية:** مرتبة غفلة لا يستحضر معها الشعور بخطأ المعصية، ولكن لا ينفك القلب عن اعتقاد حرمة ما يقوم به، بل يبقى اعتقاد التحريم منعقداً بالقلب وهو محجوب عن هذه المعتقد حال المعصية، وهذا إنما يستشعر ألم المعصية بعد مقارفتها.
- **والمرتبة الثالثة:** مرتبة التمرد على أمر الله سبحانه وتعالى بحيث ينفك اعتقاد التحريم عن القلب، ويستكبر المكلف عن الانقياد إلى أصل التكليف سواءٌ التزم بمقتضى التكليف ظاهراً أم لم يلتزم، وهذا لا يستشعر ألم المعصية لشدة ما فيه من عمى القلب، وهذه المرتبة هي أشد المراتب لأنها مرتبة الخروج بالذنب عن أصل الإيمان، وهي سبيل الخذلان والثبور عياذاً بالله من ذلك، وهذه مرتبة معصية إبليس عليه لعنة الله.

وإبليس عليه لعائن الله لم يكن ذنبه الظاهري – وهو مخالفة أمر الله بالسجود لآدم – مناط خذلانه، فإن الله تعالى يغفر ما هو أعظم من ذلك، فكم من الكفار ممن لم يسجدوا لله في حياتهم سجدةً واحدةً قد غفر الله لهم حين أقبلوا على الله وشهدوا بالتوحيد ودخلوا في دين الإسلام فغفر لهم ترك السجود الواجب، ولكن مناط خذلان إبليس كان في إبائه قبول المنزلة التي قدّرها الله

له، وتمرده على أمر الله واستكباره عنه. فخذلان إبلي كان بسبب استكباره عن الحق وفي ملاحظة هذا الأمر فائدةٌ عظيمةٌ لكل مكلف، وهي أن يتعهد قلبه دوماً بالرعاية والسقاية الإيمانية، وذلك بأن يوطن نفسه على مقام العبودية التامة لله والاستسلام التام لأمر الله، حتى إذا أذنب ذنباً كان ذنبه ذاك لغفلة أو غلبة شهوة لا بتمردٍ واستكبارٍ يُخذل بسببه عن التوفيق لطريق التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، فتأمل هذا السر العجيب تدرك الحكمة الربانية الباهرة من خلق إبليس وتقدير ما قدره من وقوع المعصية الإبليسية.

إن مَثلَ من يذنب ذنباً كمثل من يتعثر ويسقط حال مشيه؛ فكلما كان بدنه قوياً بسبب تعهده السابق له بالغذاء الصالح والوقاية من الأسقام، وإعطاء روحه حظها من الحفظ والرعاية لتصلح ويصلح بها الجسد، كلما كان أقدر على القيام من زلته ومتابعة المسير، وكلما كان بدنه هزيلاً وروحه خبيثة بسبب تقصيره السابق في رعاية بدنه، واقتصاره في غذائه على الأطعمة الرديئة، وترك روحه عرضةً للأحوال الخبيثة، وإهماله في وقاية بدنه وروحه من الأسقام التي تُذهب عافيتهما، كلما عجز عن القيام من عثرته وكلما أخلد إلى الأرض بكبوته، فإذا به يبقى عديم الهمة منزوع القوة لا يقوى على قيامٍ ولا ينهض

لمتابعة سير، فتأمل هذا تدرك الفرق بين حال من وفق للتوبة وحال من خذل عنها عياذاً بالله من ذلك. والقاعدة النافعة في هذا الموضع ترك الكبر والاستكبار واستدامة الفقر إلى الله والانكسار بالذل بين يديه سبحانه وتعالى.

فصل: في مشهد توبة آدم عليه السلام :

قال الله تعالى: (**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**)[6].

يجد المتدبر في هذا المشهد الفرق الذي تقدم التنبيه عليه في حال مقترف المعصية حال وقوعه فيها من حيث استحضار التحريم أو الغفلة عنه أو الاستكبار والتمرد عليه، فمعصية آدم عليه السلام كانت زلةً وقع فيها مع حضور مشهد العبودية وعدم انفكاك القلب عن الانقياد لله عز وجل واعتقاد

[6] البقرة 35-37

وجوب الانقياد لمقتضى أمره ونهيه والتزامه ذلك في الجملة رغم وقوع المخالفة العملية في جزئية المعصية التي يقترفها. ومن تأمل قول الله عز وجل: **(ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنَسِيَ ولم نجد له عزماً)**[7] يدرك أن المعصية من آدم عليه السلام لم تكن عن سبق استكبارٍ عن أمر الله سبحانه وتعالى، ولا عن تمردٍ من آدم عليه السلام على مقام عبوديته لربه، وإنما كانت لحظة نسيان وخَوَرٍ في العزيمة: **(فأكلا منها فبدَت لهما سوآتهما)**[8] سرعان ما انكشفت عن ألم المعصية والحياء من الله تعالى: **(وطفِقا يخصفان عليهما من وَرَق الجنة وعصى آدمُ ربَّه فغوى)**[9]، فكان ألم المعصية والحياء من الله عز وجل أن يُعصى ويُخالف فيما أمر ونهى عنه سبحانه سبباً لسرعة الإنابة إلى الله بتوفيق الله تعالى له للإنابة والتوبة والدلالة على طريق الاستغفار: **(قالا ربنا ظلمنا أنفسَنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين)**[10] ليكون سنةً لآدم وذريته من بعده أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن طريق ابن آدم مظنة السقوط في مكائد الشيطان، والزلل والوقوع في الخطأ والعصيان، وأن هذا هو غاية الظلم للنفس- أعني استجلاب المفاسد والمهالك عوضاً عن المصالح والمفاوز-

[7] طه 115
[8] طه 121
[9] طه 121
[10] الأعراف 23

وأن الإقرار بأن رحمة الله تعالى للعبد هي حبل النجاة الوحيد لمن أقر بظلمه نفسه وبادر واستغفر ربه فنال بإذن الله رحمة الله الواسعة التي تحوِّل خسارته وتجارته البائرة إلى ربحٍ وفوزٍ عظيم، كما قال عز وجل عن آدم عليه السلام: **(ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى)**[11].

فصل: مقارنة بين توبة الملائكة وتوبة آدم عليه السلام:

وهنا سرٌ لطيف يظهر عند التدبر في مشهد كل من التوبتين، وهو أن الملائكة لما كانت مجبولةً على الطاعة، ولم تكن مكلفةً في دار تكليف كما هو حال آدم عليه السلام وذريته، كان مدار توبتها إلى الله جل وعلا على مطلق الثناء على الله سبحانه وتعالى بجميل أسمائه وجليل صفاته دون نسبة عملٍ أو سعيٍ إلى أنفسها، وإنما كانت توبتها تحقيق الثناء والمديح لله عز وجل على ما هو عليه سبحانه من أسماء الكمال وصفات الجلال المناسبة لسياق المخالفة والقصور الذي وقعت فيه، أما آدم عليه السلام فلما كان وهو وذريته مخلوقاً في تقدير الله تعالى لدار التكليف والابتلاء بالأمر والنهي، كان مدار الكلمات

[11] طه 122

التي ألقاها الله تعالى إليه ليتوب ويستغفر بها دائرةً حول العمل والسعي نحو إزالة أسباب المعصية بالالتفات إلى الظلم والنقص الذي ألحقه المكلف بنفسه، وطلب أسباب محوها باستغفار المكلف ربَّه وطلب الرحمة منه.

ويدل هذا على أن دار التكليف دار درء مفاسد وجلب مصالح المكلف بعبادة الله تعالى، وأن الله تعالى لا تضره معصية، ولا تعجزه مغفرة، وإنما ضرر ذلك ونفعه كله إنما يعود على المكلف، وأن في دلالة الله تعالى عبده على طريق الاستغفار والتوبة وهدايته له، وإرشاده إلى العمل النافع في سبيل تحصيل ذلك هو أثرٌ من آثار ربوبيته وتكفل الله بمصالح عبيده، ودليل على افتقار المكلف الدائم وعدم استغنائه عن الله تعالى في أي حال من أحوال درء المفاسد عنه أو جلب المصالح إليه، فإذا تحقق توحيد الربوبية على هذا الوجه ظل العبد متعلقاً بالله موحداً إياه ليصل بذلك إلى توحيد الإلهية بتجريد القصد والدعاء لخالقه سبحانه سعياً في تحقيق مصالحه في العاجل والآجل، فيحدوه ذلك كله على عدم اليأس والقنوط من رحمة الله وعدم الاستسلام للمعصية وعدم اليأس من كفرانها وغفرانها، كيف وقد عرف أن من وراء الخلق رباً كاملاً حكيماً خلق الخلق بقدرته وصرف أقدارهم بحكمته، حتى إذا ازدادت معرفة العبد بربه شيئاً

فشيئاً ارتقى في محراب التوبة إلى مراتب الكمال التي تمثلت في توبة الملائكة إلى الله تعالى بالمديح المطلق له سبحانه، والثناء الجميل عليه بأسمائه وصفاته جل وعلا، فالعاصي في هذه المرتبة ينظر إلى معصيته على أنها شائبة تعكر صفو حبه لله تعالى، وأخذ يتدبر في حكمة الله تعالى في تقدير هذا الذنب ليتحقق المكلف من فقره إلى الله وأنه لولا توفيق الله لما أطاعه لحظة، وأنه لولا توبة الله عليه لأهلكته أقل ذنوبه، فيدفعه ذلك كله إلى النظر إلى الله تعالى بعين المحب الذي أساء إلى محبوبه، وبعين الفقير الهالك ما لم يمده سيده ومولاه بأسباب الغنى والنجاة، فيبادر عند ذاك ويهرع بالإنابة إليه سبحانه وتعالى، لا تقلقه ذنوبه بقدر ما يقلقه بعده عن محبوبه وخشيته من انقطاع حبل مودته وحبه، فتأمل ما بين المرتبتين من الفارق؛ مرتبة مراعاة حظوظ النفس ومرتبة مراعاة حق الله تعالى، ثم تأمل أن دلالة الله تعالى عبده على مرتبة مراعاة حظوظ النفس ومصالحها هي أثر من آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ليزيدك ذلك معرفةً بالله تعالى وحباً له لجميل أسمائه وعليِّ صفاته، فيحدوك ذلك للوصول إلى مرتبة التوبة بمراعاة حق الله بعد أن ذقت حلاوة ذل العبودية لله وأنت تطلب حظ نفسك بإرشاد الله تعالى لك إليها. فهو الله تعالى الممتن عليك في

الأول، وهو سبحانه وتعالى الممتن عليك في الآخر، وأنت أيها العبد إنما تتنقل من رحمةٍ لله إلى رحمة أخرى منه سبحانه، طالما أن أصل الإيمان المنعقد في قلبك لم يغلبك عليه استكبار إبليس عن مرتبة العبودية وتمرده عليها، وطالما بادرت كلما أذنبت ذنباً وإن عظُم فعجلت بالتوبة والاستغفار والإنابة إلى الله جل في علاه.

فصل: في مشاهد توبة الأنبياء والرسل

أنبه بدايةً على أن عقيدة أهل الإسلام اعتقادُ عصمة الله تعالى للأنبياء والرسل، وأن الله تعالى قد اصطفى لرسالاته أفضل خلقه وأكملهم خُلُقاً، قال تعالى: (**الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومِن الناس إن الله سميعٌ بصيرٌ**)[12] ، غير أن كمال مرتبة الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى لرسالته ليكونوا أسوةً لعباده تقتضي منهم مراعاة الزلات التي هي خِلاف الأَولى من مراتب الكمال، لا أنها معصيةٌ صريحةٌ في حد ذاتها؛ فالرسل والأنبياء لكمال علمهم بالله تعالى وبعظيم حق الله تعالى يستشعرون النقص من بعض الأقوال والأفعال بالنظر إلى

[12] الحج 75

ما يجب لله تعالى من الأدب والعبودية الحقة، فيسارعون للاستغفار من هذه الزلات لعظيم معرفتهم بحق الله تعالى، ولِيَسُنُّوا للعباد المتأسين بهم سنة التوبة والاسغفار. **وسر المسألة أنه كلما عرف العبد ربَّه، واستشعر عظيمَ حقِّه، وقدره حقّ قدره كلما استعظم الغفلةَ عن الله، وكلما بادر لاستدراك أي هفوة منه تجاه ربه ومولاه**، ولو لم تكن معصيةً صريحةً في حد ذاتها، ولكنها نوع تقصيرٍ في نظرهم تجاه حق الله سبحانه وتعالى. والرسل والأنبياء أكمل الخلق معرفةً بالله، فهم أكمل الخلق تداركاً لما بدر في حق الله، وهم بذلك قد سنُّوا لنا أروع منهجٍ في سرعة الإنابة إلى الله، ولزوم عتبة الاستغفار مع عدم وقوعهم في الذنوب التي يستغفر منها مثلي من البشر، نسأل الله العفو والعافية. وإن من حكمة الله تعالى في هذا المنهاج النبوي الرسالي أن لا يستسلم العبد لليأس والقنوط إذا هو أذنب، حيث يرى أن من هو أكمل منه إيماناً وخيرٌ منه عملاً قد أذنب – نسبياً – فآب إلى الله تعالى وتاب واستغفر، فتاب الله عليه وغفر له، وازدادت معرفته بربه، وازداد حبه وقربه له عند تحقيق التوبة وظهور أمارات القبول لها من الله عز وجل. فيا لها من حكمة عظيمة، ويا لها من أسوة حسنة تلك التي سنّها لنا الأنبياء والرسل، فلنتدبر في بعض

المشاهد القرآنية التي رصدت ذلك ليكون لنا حادياً على طريق التوبة والإنابة، وحافظاً من مهاوي القنوط والكآبة.

توبة نوح عليه السلام:

قال الله تعالى: (**ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنَّ ابني مِن أهلي وإنَّ وعْدَك الحقُّ وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوحُ إنه ليس مِن أهلك إنه عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألْنِ ما ليس لك به علمٌ إنّي أعظُك أنْ تكون مِن الجاهلين. قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ وإلّا تغفر لي وترحمني أكنْ مِن الخاسرين. قيل يا نوحُ اهبط بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممّن معك وأممٌ سنُمتِّعهم ثم يمسُّهم منَّا عذابٌ أليمٌ**)[13]؛ لقد تأول نوحٌ عليه السلام أمر الله تعالى له حيث قال عز وجل: (حتى إذا جاء أمرُنا وفارَ التنُّورُ قلنا احمل فيها مِن كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلا مَن سبق عليه القول ومَن آمن وما آمن معه إلا قليلٌ)[14]، فظن عليه السلام أن المراد بأهله ما يظنه كل امرئ من أن الأهل هم قرابة الدم والأسرة، فدعا ربه سائلاً إياه نجاة ابنه الذي اختار

[13] هود 45-48
[14] هود 40

أن يكون مع الكافرين، فعاتبه ربه في ذلك مبيناً جل وعز أن **مفهوم الآل في مسائل العقيدة يرتبط بالإيمان والكفر لا بالأبوة والبنوة وغيرها من وشائج القربى وصلاتها**، فما كان من نوحٍ عليه السلام إلا أن امتثل لأمر ربه، وانطرح على باب عبوديته، مستغفراً الله عز وجل وتائباً إليه من هذه الزلة التي تغلبت فيها عاطفة الأبوّة متأولاً عموم لفظ الأهلون في وعد الله عز وجل، وتأمل في مشهد التوبة والاستغفار العظيم هذا: (قال رب إني أعوذ بك) فرارٌ من الله إلى الله، (أن أسألك ما ليس لي به علم) وإقرار بالخطأ واعتراف بالزلل، (وإلا تغفر لي وترحمني) وتوحيد الدعاء والقصد في طلب المغفرة والرحمة من الغفار الرحيم وحده لا شريك له ولا غافر للذنب سواه ولا رحيم بعباده إلا هو سبحانه وتعالى مهما تعاظم ذنب ومهما كبرت معصية، (أكن من الخاسرين) وهذا تقدمٌ إلى الله تعالى بغاية عجز العبد وافتقاره إلى ربه، فتأمل كيف جمع مشهد الاستغفار هذا بين شهود فقر العبد لربه، وعجزه عن النظر في مصالحه، وتوحيده أسماء الله وصفاته، وتحقيق مقام العبودية المطلقة بالافتقار التام لله جل في علاه، ثم تأمل في عاقبة هذا الذنب وعاقبة هذه التوبة والاستغفار: (قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك وأممٌ سنُمتَعهم ثم

يمسُّهم منّا عذابٌ أليمٌ)، وكيف ناسب أن يجازي الله تعالى من فر إليه خوفاً من سخطه وعقابه بالسلام والأمن من ذلك، ثم زاد رب العزة على ذلك بالبركة ليتحقق أثر اسم الله الكريم، وليرى العبد معنى صفة الكرم، بعد أن عاين أثر صفة الرحمة والسلم، ثم انظر إلى مشهد الافتراق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان المترتب على تحقيق مناط الولاء والبراء الإيماني حيث قال تعالى: (وعلى أممٍ ممّن معك) فهذه معية الإيمان، وهذا أثر تحقيق معنى "الأهل"، وأن المقصود بآل الرسل أتباعهم على الإيمان لا قرابتهم المجردة عن الإيمان، (وأممٌ سنُمتّعهم ثم يمسُّهم منا عذابٌ أليمٌ) فهذا معسكر أولياء الشيطان الذين اختاروا الإباق والكفر، وآثروا عاجل الدنيا على آجل الآخرة، فباؤوا بالخسران المبين، ولم تنفعهم قرابتهم من الرسل والمؤمنين. وحسب المؤمن هذا الأثر العظيم لتوبة العبد الصادق والرسول الكريم نوحٍ عليه السلام ليدرك حكمة الله البالغة في وقوع الذنب من العبد، وتوفيق العبد للإنابة إليه، والتوبة مما بدر، والاستغفار لما وقع، فإذا به بتوفيق الله تعالى ينتقل بعد المعصية والتوبة النصوح إلى حالٍ أفضل ومرتبةٍ أعلى مما كان عليه قبل المعصية، وليس هذا مدحٌ لمقام المعصية وليس هو تجرئةٌ عليها، وإنما هو مدحٌ لمقام التوبة وحثٌ

عليها حالَ بُدورِ الذنب وحصول الهفوات والزلات، فسبحان من سبقت رحمته غضبَه فوفق عباده الصالحين للتوبة والاستغفار والإنابة، وارتقى بهم من حال الناظر إلى طاعته إلى حال المشفِق من ذنبه وتقصيره، فإذا به منطرحٌ عند عتبة الاستغفار معلناً فقره إلى الله ومتبرئاً من كل حولٍ وقوة، حتى إنه لا يكاد يذكر لنفسه طاعة قط، بل يصبح ذنبه بعد التوبة منه أرجى من طاعته مع نسبة العمل إلى نفسه، والله وحده صاحب المنِّ والفضل في هذا كله.

توبة إبراهيم عليه السلام:

قال الله تعالى حكايةً عن قول إبراهيم عليه السلام لقومه: (**قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يُميتُني ثم يُحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**)[15]، ومن يتدبر هذا الموضع يجد طمعَ إبراهيم عليه السلام بمغفرة الله تعالى له خطيئته غيرَ مقرونٍ بذكر خطيئةٍ معينةٍ، وقال الله تعالى: (**وإذ يرفع**

[15] الشعراء – 75-82

إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)[16]، ومن يتدبر هذا الموضع أيضاً يجد أن دعاء إبراهيم عليه السلام ربه وطلبه التوبة منه جل وعلا غيرُ مقرون بذكر ذنبٍ معين، ولعل سر المسألة أن الله تعالى قد علّم خليله إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه أن يستغفر ويتوب دون اشتراط استحضار ذنْبٍ أو تقصير أو خطأ بعينه، لأن التقصير والذنب والخطأ ملازمٌ للعبد في كل أحواله، فلا بد للعبد من استغفار يلازمه ملازمة الذنب له، ولا بد للعبد من توبة على الدوام تلازمه ملازمة التقصير له، ولقد تقدم بيان أن مراتب الذنوب تتفاوت بتفاوت مراتب الإيمان ومعرفة العبد بربه؛ فكلما كان العبد أكمل إيماناً وأتم معرفةً بالله كلما عدَّ الهفواتِ والغفلات التي لا يراها غيره شيئاً ذنباً ثقيلاً يلزمه الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل منه، وهذا حال من اصطفاهم الله تعالى لرسالته من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه، وهذا ما سنَّه لنا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام باستغفاره المطلق وتوبته المطلقة في مقامين من مقامات الطاعة الشريفة اللتين كان متلبساً بهما؛ فطلبه للمغفرة في الآيات من سورة الشعراء

[16] البقرة 127-128

كان وهو ينافح عن عقيدة التوحيد ويقرر مفردات توحيد الربوبية والألوهية لله عز وجل ويدعو الناس إلى ذلك، وطلبه للتوبة في سورة البقرة كان وهو يعمر بيت الله ويشيد للناس قِبلتهم في الدنيا وهو يقرر توحيد أسماء الله الحسنى التواب الرحيم، وصفاته العلى التوبة والرحمة، فتأمل عِظَم المقامين ثم تأمل لزوم إبراهيم عليه السلام للاستغفار والتوبة فيهما تدرك سراً عظيماً وهو أن إقبالك على التوبة والاستغفار مهما كان الذنب منك إنما هو من توفيق الله تعالى لك حيث وحّدته في أسمائه فعلمت أنه لا تواب ولا غفار للذنب غيره، وأنك وحّدته في صفاته فعلمت أنه لا مغفرة ولا توبة إلا من عند الله وحده، فمن أدرك هذا السر لم يستعظم أن يغفر الله تعالى له ما شاء، ولم يقنط أن يتب إلى الله من الذنب أياً كان. أما من كانت مقاماته مع الله تعالى مقامات الطاعة والعصمة كالأنبياء والرسل فإن لزومهم الاستغفار والتوبة كما بيَّنا هو لكمال معرفتهم بعظيم حق الله، ولما يعتريهم من غفلات وأحوال هي خِلاف الأَولى في حقهم، ومن هذا قوله ﷺ: (إنه لَيُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[17]؛ قال الإمام النووي رحمه الله:" قال أهل اللغة الغين بالغين المعجمة والغيم بمعنى، والمراد هنا: ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل المراد الفترات

[17] صحيح مسلم 2702

والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه الدوام عليه، فاذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه، قال: وقيل هو همّه بسبب أمته وما اطلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم، وقيل سببه اشتغاله بالنظر فى مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته وتأليف المؤلفة ونحو ذلك فيشتغل بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنبا بالنسبة إلى عظيم منزلته، وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال فهي نزولٌ عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك"[18]. **والقاعدة النافعة هنا أن العبد كلما وفقه الله للطاعة وفقه للاستغفار والتوبة كونه لم يكن على تلك الدرجة من الطاعة في سالف عمره فيستغفر لذلك**، ومن تأمل هذه القاعدة أدرك سراً من أسرار توبة الأنبياء واستغفارهم.

توبة يوسف عليه السلام:

قال الله تعالى: (**وقال الملك ائتوني به فلما جاءَه الرسولُ قال ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النِسوة اللاتي قطَّعنَ أيْدِيَهُنَّ إنَّ ربِّي بِكيدِهنَّ عليمٌ. قال ما**

[18] شرح النووي على صحيح مسلم 17/32، باختصار يسير

خَطْبُكُنَّ إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسه قلن حَاشَ لله ما عَلِمْنَا عليه مِن سُوءٍ قالت امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودته عن نفسه وإنه لَمِنَ الصادقين. ذلك لِيَعلم أنِّي لم أَخُنْهُ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أُبَرِّىء نفسي إنَّ النفسَ لأَمَّارةٌ بالسُوءِ إلا ما رَحِم ربِّي إن ربِّي غفورٌ رحيمٌ)[19]؛ لقد كان ابتلاء نبي الله الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم بفتنة امرأة العزيز له، ومراودته إياه عن نفسه في بيت سيده، وفي غيبة سيده فتنةً عظيمة، استعصم فيها يوسف عليه السلام بالله عز وجل، وآثر السجن على مطاوعة امرأة العزيز ومَن جمعت من النساء في مبتغاهن منه. وكان من الطبيعي أن يسعى يوسف عليه السلام إلى تبرئة ذمته وإعلان حقيقة سريرته على الملأ حين وصل أمره إلى الملك الذي أرسل إليه يطلبه، فلما اعترفت امرأة العزيز بحقيقة الأمر، وأقرت بصدقه في دعواه عليها بأنها هي التي راودته عن نفسه أفصح عليه السلام بقوله: (ذلك ليعلم أنِّي لم أَخُنْهُ بالغيب) أي ليوقن العزيز أني قد حفظت عهده ولم أخنه في عرضه حال غيبته عن بيته، ولكن لما كان في هذا الكلام نوع انتصارٍ للنفس وتزكيةٍ لها بادر يوسف عليه السلام إلى الانكسار لله تعالى والاستغفار إلى الله فقال عليه السلام: (وما أبرّئ نفسي إن

[19] يوسف 50-53

النفسَ لأمّارةٌ بالسُوءِ)، وهذا هو التواضع اللائق بأخلاق الأنبياء؛ روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري في قوله: (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قال: خشي نبي الله أن يكون زكى نفسه، فقال: (وما أبرئ نفسي) الآية[20].

ثم تأمل كيف كان كمال علم الأنبياء بالله عز وجل، حيث وحَّد يوسف عليه السلام الله تعالى في اسمه الغفور وصفته المغفرة، وفي اسمه الرحيم وصفته الرحمة، ليكون أسوةً للناس في اعتقاد أن الله وحده يغفر الذنوب صغيرها وكبيرها وأن الله وحده رحيمٌ بعباده رغم تقصيرهم ومطاوعتهم النفس الأمارة بالسوء، وذلك كي لا ييأس أحدٌ من مغفرة الله وهو الغفور على صيغة المبالغة، ولا يقنط أحدٌ من رحمة الله وهو الرحيم على صيغة المبالغة أيضاً. وأنت إذا تأملت في مشهد التوبة هذا لمست فيه غاية الانكسار لله تعالى في موقفٍ يسهل على النفس أن تخذل صاحبَها فتدعوه إلى الكِبر والاستعلاء كونه انتصر ممن ظلمه – ولو بالحق – وكونه زكى نفسه ولو في معرض تبرئة ذمته من تهمةٍ باطلة، وذلك كله حتى يتحقق التجريد الكامل للعبودية لله تعالى، والتواضع الكامل لله عز وجل.

[20] تفسير ابن أبي حاتم – 2158/7

توبة يونس عليه السلام:

قال الله تعالى: (**وذا النّون إذ ذهب مغاضباً فظنَّ أنْ لنْ نَقْدِرَ عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجَّيناه مِن الغَمّ وكذلك نُنْجِي المؤمنين**)[21]، فهذا نبي الله يونس بن متى عليه السلام قد عاجل ربَّه بترك قومِه غضباً لعدم استجابتهم لدعوته، وقد ظن – لمكان نبوَّته – أن الله لن يضيق عليه، ولكن الزلة قد حدثت، وأَمَرَ الله تعالى الحوت أن يحبس نبي الله لمعاجلته أمر الله عز وجل غضباً لله، ثم يجتبي الله تعالى نبيه ويصطفيه للتوبة بتوفيقٍ يوفقه إياه، وبكلماتٍ مباركاتٍ طيباتٍ أصبحت سنة استغفار لكل من أصابه الضيق والغم من المؤمنين مِن بعد يونس عليه السلام، إنها بركة التوبة إلى الله من المعصية، والإقبال على الله بعد الذنب، تأمل هذا الاستغفار العظيم: (لا إله إلا أنت)؛ إقرارٌ بوحدانية الله وأن لا شيء يقع في كون الله إلا بأمره وخلقه ومشيئته، (سبحانك) تنزيهٌ لله تعالى عن كل ما لا يليق به من نقص، وتوحيدٌ لله تعالى في أسمائه وصفاته يتوسل بذلك إلى طلب التوبة والمغفرة، (إني كنت من الظالمين) اعترافٌ بالذنب

[21] الأنبياء 87-88

والتقصير، مشفوعٌ بالندم على ما بدر، والعزم على ألا يتكرر، وهذه هي مقومات التوبة النصوح، ولهذا عمَّت بركة هذه التوبة المباركة من هذا النبي الصالح كل مؤمنٍ من بعده يصيبه غمُّ المعصية فيلجأ إلى الله تعالى بهذا الاستغفار العظيم: **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.**

وهنا مسألةٌ لطيفةٌ وهي: أن يونس عليه السلام إنما كان غضبه من قومه لله تعالى، وكان تركه إياهم في ظنه جزاءً وِفاقاً على ردّهم الدعوة، ولكن موضع الغفلة أنه تركَ قبل أن يُؤذن له، وتقدم بين يدي الله قبل أن يُؤمر، ولما كانت الدعوة إلى الله عبادةً، وكانت الرسالة من الله تكليفاً، لم يكن للعبد ولا الرسول أن يتقدم بين يدي الله أو يتأخر إلا بإذن الله. والفائدة من هذه المسألة في باب التوبة **أن العبد إذا وقع في الذنب فإنه لا يزال مأموراً منهياً مِن قِبل الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز له أن يتوسل إلى التوبة والاستغفار طرقاً غير الطريق الذي شرعه الله تعالى له،** فليس له أن يُحدِث عقوبةً لم يشرعها لله تعالى، وليس له أن يعنِّت نفسه بما لم يأمره به الله للتوبة، وأشد من هذا كله من يقع في مكيدة القنوط واليأس الإبليسية فلا يرى نفسه أهلاً لتوبة الله عليه ولا محلاً لمغفرة الله له فيُقدم على قتل نفسه، أو يكرر الوقوع في الذنب طالما

أنه معاقَبٌ لا محالة، فيزيد بذلك إلى ذنبه الأول ذنباً آخر، ويضاعف جريمته جريمةً أخرى، وهكذا، فبدلاً من أن يفر من الله إلى الله، يفر من الله إلى إبليس،والعياذ بالله. فالحذر الحذر من هذا اليأس، واعلم أيها العبد أن التوبة إلى الله لا تكون إلا بما أمر الله وشرع من وسائل التوبة، وليس بعد ذلك إلا الاستكثار من الصالحات اللاتي يذهبن السيئات، والله المستعان على ذلك كله.

توبة موسى عليه السلام:

قال الله تعالى حكايةٌ عن موسى عليه السلام: (**ودخل المدينة على حين غفلةٍ مِن أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا مِن شِيعته وهذا مِن عدُوِّه فاستغاثه الذي مِن شِيعته على الذي مِن عَدُوِّه فَوَكَزَهُ موسى فقضى عليه قال هذا مِن عمل الشيطان إنه عدوٌ مضلٌ مبينٌ. قال ربِّ إنِّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغَفَرَ له إنه هو الغفور الرحيم. قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين**)[22] ، ها هو موسى عليه السلام يقتل رجلاً في

[22] القصص 15-17

لحظة عصبيةٍ لرجلٍ مِن قومه، فإذا به يتدارك نفسه على الفور ويُقِرُّ بذنبه، وينسب النقص والتقصير فيه إلى نفسه والشيطان تأدباً مع الله تعالى، ثم يبادر بطرح مظلمته نفسَه بين يدي الله مُقِرّاً بذنبه، طالباً المغفرة مِن ربه الغفور الرحيم؛ إنها اللحظة الإيمانية التي تتلو المعصية على الفور فيوفق الله تعالى مَن سبق له الرضا منه عليه إلى التوبة والإنابة والفرار من الله إلى الله، **فتكون النعمة الأولى بالتوفيق للتوبة، ثم تكون النعمة الثانية بحصول التوبة، ثم تكون النعمة الثالثة بقبول التوبة**، وهذا مدلول قوله (ربِّ بما أنعمت علي) أي نعمة التوفيق للتوبة والتمكين من فعلها وقبول الله لها، ثم تأمل كيف قطعت هذه التوبة النصوح الولاءَ الجاهلي القائم على العصبية والقومية والقبلية ليحل محلها الولاء الإيماني القائم على رابطة الإيمان بالله وحده لا شريك له، فإذا بالمرء يحبس تصرفاته على ما يرضي الله وحده، ولهذا قال عليه السلام : (فلن أكون ظهيراً للمجرمين)، أي ولو كان مِن عشيرتي وقومي وقرابتي. وهذا شأن الإيمان لا يقبل من أهله رابطةً سواه، وهذا شأن حب الله لا يقبل من المحب شراكةً معه بمن سواه، فتأمل إلى هذه الآثار العظيمة للتوبة، وتأمل إلى تأكد سنة الرسل في قطع العلائق مع العباد مهما قربوا، ووصل حبل الله تعالى

وحده لا شريك، فلا نجاة للعبد إلا بالفرار إلى الله، ولا حياة هانئة للعبد إلا بالانطراح بين يدي ربه ومولاه، فلا ذنب أكبر من أن يغفره الله، ولا معصية أكبر من أن تنال العاصي بها رحمةُ الله، شريطة أن يحسن العبد الظن بالله، ويأخذ أسباب الإقبال على الله، ويوطن نفسه على ذلك قبل الوقوع في الزلل[23] لأنه واقع فيه لا محالة، فكلما كان الاستعداد أتم كلما كانت الإنابة إلى الله أسرع، قال تعالى: (إن الذين اتَّقوا إذا مسَّهم طائفٌ مِن الشيطان تذكّروا فإذا هم مُبصِرون)[24]، وإن تعجب فاعجب لتوبة عبد الله موسى بن عمران بعدما قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وما أثمرته هذا التوبة الصادقة من اصطفاء الله تعالى له بالرسالة بعد أن أنجاه من فرعون ومَلَئِه، ثم إرساله إلى فرعون نفسه ليقيم حجة الله تعالى عليه، فيزيل الله تعالى بها عرشاً من عروش الكفر، فيا عجباً لبركة هذه التوبة كيف أهلكت أمة الكفر وأقامت أمة الإسلام، فليكن حسن الظن بالله دأبَ كل مذنبٍ وكل عاصٍ، فما يدريه ما تعود به عليه توبته من خيرٍ في العاجل والآجل، فلله الحمد على توفيقه التوابين للتوبة، ولله الحمد على قبوله من التوابين التوبة. وهنا **قاعدة مهمة في التوبة**

[23] أي بشكل عام لأن البشر غير معصومين إلا من عصمه الله
[24] الأعراف 201

ألا وهي قطع أسباب الرجوع إلى المعصية، كما تقدم بيانه من قطع وشيجة العصبية الجاهلية بين موسى وقومه وإحلال وشيجة الولاء الإيماني محلها بين موسى عليه السلام ومن آمن معه، فتأمل هذه القاعدة فإنها نافعة جداً بإذن الله.

توبة داود عليه السلام:

قال الله تعالى: (**وهل أتاك نبأُ الخصم إذْ تَسوَّرُوا المِحراب. إِذ دخلوا على داود ففزِع منهم قالوا لا تَخَفْ خَصمان بغَى بعضُنا على بعضٍ فاحكُم بيننا بالحق ولا تُشْطِط واهدِنا إلى سواءِ الصِراط. إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً وليَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفِلنِيها وعزَّني في الخِطاب. قال لقد ظَلَمَك بِسؤالِ نَعجَتِك إلى نِعاجِه وإنَّ كثيراً مِن الخُلَطاء لَيبْغِي بعضُهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظنَّ داودُ أنَّما فتنَّاه فاستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ. يا داودُ إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناسِ بالحق ولا**

تتَّبِع الهوى فيُضِلَّك عن سبيل الله إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحِساب)[25] ، وهذا مشهدٌ قرآنيٌ عظيمٌ من مشاهد توبة الرسل، قد تجلى في استشعار نبي الله دواد عليه السلام غفلته في الحكم بين خصمين في قومٍ هو نبيُّهم ومِلِكُهم، وأنبه هنا على مسائل دقيقة في هذا المشهد:

أولها: أن تفرغ داود عليه السلام لعبادة ربه في المحراب كان انعزالاً عن الدنيا للآخرة، لكنه لم يكن شافعاً عند المؤاخذة في التفريط بحقوق العباد، وهذا يدل على **أهمية حفظ حقوق العباد وردها، بل هو شرط التوبة النصوح باتفاق العلماء**

الثاني: أن داود عليه السلام حيث لم يوفَّق للحكم الصحيح بين الخصمين، فإن سياق الآية يبين أن نبي الله داود عليه السلام لم يحكم كذلك لهوىً في نفسه أو شططٍ في حكمه، وإنما غَلَبَهُ ما يغلب الناس مِن ظن الحق مع الضعيف وظن الباطل مع القوي على اطراد، وهو ظنٌّ غيرُ موضوعيٍ قد لغته الشريعة الإسلامية حيث قال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين**

[25] ص 21-26

بالقسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أَوْلَى بهما)[26]، والمقصود أن داود عليه السلام كان – مع ظنه المرجوح واجتهاده الخاطئ – يتحرى دفع الظلم عن المظلوم، ولم يكن حاشاه عليه السلام يتبع هوى نفسه.

الثالث: مباشرة داود عليه السلام للاستغفار على الفور، لم تأخذه – حاشاه عليه السلام – أَنَفةٌ أو كِبرٌ أن يعترف بخطئه ويقر بغفلته، فإذا به يُتْبِعُ الخطأ استغفاراً مباشراً باللسان، وسجوداً بالجوارح والأركان، وإنابة إلى الله بالجَنان، فجمع عليه السلام في استغفاره عمل القلب واللسان والجوارح، فيا له من استغفارٍ عظيمٍ، ويا لها من سنة نبوية شريفة قَمِنٌ بنا المتابعة عليها.

الرابع: المجانسة اللطيفة بين نوع الذنب الذي وقع فيه نبي الله داود عليه السلام وهو المعاجلة في الحكم التي أدت إلى تفويت الحق، وبين ما عادت به التوبة النصوح على نبي الله داود عليه السلام من التمكين في الأرض للحكم بما أنزل الله، فيا لها من بركةٍ عظيمةٍ من بركات التوبة النصوح، ويا له من أثرٍ عظيمٍ من آثار رحمة الله تعالى بخلقه حيث رحمهم لما عَصَوا، ورحمهم لما تابوا،

[26] النساء 135

ورحمهم بعدما تابوا، سبحانك اللهم لا تحرمنا رحمتك ولا تخذلنا عن الإنابة والرجوع إليك.

لقد كان توفيق الله تعالى لنبيه داود في مشهد الاستغفار والتوبة والإنابة هذا عظيماً فيما عاد به على نبي الله داود من حسن الحال والمآل، وفيما عاد به عليه بالتمكين في الأرض للحكم بمأ أنزل الله، وفي هذا محركٌ ودافعٌ لكل مكلف مهما أذنب ومهما أخطأ أن يسعى في العودة إلى الله فإن الفرج والسعادة وحسن العاقبة في ذلك وحده. **وهنا قاعدةٌ عظيمةٌ وهي أن التوبة إلى الله من الذنوب سبيلٌ عظيم للتوفيق لطاعة الله بالقربات**، وإذا كنا نعاني اليوم من ويلات تعطيل الحكم بما أنزل الله، فإن سعي كلِّ واحد منا إلى التوبة من ذنوبه الخاصة سيلٌ عظيم لتمكين الأمة من إقامة شرع الله، والتوفيق للحكم بما أنزل الله، فيا لها من قاعدة عظيمة، وبركة عظيمة من بركات التوبة.

توبة سليمان عليه السلام:

قال الله تعالى: (**ووهبنا لداودَ سليمان نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ. إذ عُرِض عليه بالعشِيِّ الصافناتُ الجِيادُ. فقال إني أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربّي حتى توارَتْ بالحِجاب. رُدُّوها عليَّ فطَفِق مَسْحاً بالسُوقِ والأعناق. ولقد فتنَّا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جَسَداً ثم أناب. قال ربِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدي إنك أنت الوهاب. فسخّرنا له الريحَ تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب. والشياطينَ كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ. وآخرينَ مُقَرَّنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامْنُن أو أمْسِكْ بغيرِ حساب. وإنَّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب**)[27]، وهذا مشهدٌ آخر من مشاهد التوبة والأوبة السريعة إلى الله تعالى بعد لحظة غفلةٍ عارضة، قد لا تكون ذنباً بالنظر إلى ذنوب مثلي من العباد، ولكن أنبياء الله تعالى ورسله لما بلغوا مراتب الكمال الإنساني في معرفة الله تعالى، ومعرفة حق الله تعالى، ومعرفة ما يجب عليهم لله تعالى، قد نظروا إلى مثل هذه الغفلات والزلات بعين المذنب، وبنظر المقصر بحق ربه وسيده ومولاه، وحق لهم أن ينظروا كذلك بعدما علَّمهم الله تعالى وأَدَّبهم بما يجب له

[27] ص 30-40

سبحانه على العباد، كما حق لهم أن يسنُّوا للعباد ممن أُمر بالاستنان بهم طريقَ التوبة وسبيل الاستغفار ليكون التابع على بيِّنة من المتبوع، ولتقوم حجة الله تعالى على خلقه، وليعلم المكلف أنه يخطئ وأن عليه أن يستغفر ويتوب، كما أخطأ من هو خير منه فاستغفر وتاب ورجع إلى الله وأناب.

وتأمل ثانيةً هذه المجانسة اللطيفة بين الذنب المستغفر منه والعاقبة التي أثاب الله تعالى بها على التوبة منه؛ فقول الله تعالى حكايةً عن سليمان عليه السلام: (إني أحببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي) فيه تضمينٌ؛ حيث ضمَّن فعل الحب معنى الانشغال، فكأنه عليه السلام يقول: إني أحببت حب الخير – وهو جميع صنوف المال – فشغلني عن ذكر ربي، فجعل سليمان عليه السلام من توبته إلى الله أن يتلف المال الذي شغله عن ذكر الله- وهذا يدل على جواز ذلك في شرعهم- فلما صدق في توبته إلى الله سخّر الله تعالى له من صنوف المال والملك والسلطان ما لم يجعله لأحد من بعده. وأنت تكاد ترى هذه السنة من الله تعالى فيمن يتوب إليه من خطأٍ أو زللٍ فيجعل من توبته ترك السبب الدنيوي الذي أفضى إلى ذلك الذنب أن يثيبه من جنس ما ترك مما هو خيرٌ له في الدنيا، هذا مع عظيم ما أعده له في الآخرة، وهذا يدل على بركة التوبة

وجليل أثرها وعظيم نفعها، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من التوابين الأوّابين إليه سبحانه. فكم هي خسارة من يُعرِض عن طريق التوبة، وكم هو حرمان من لم تطاوعه نفسه على الاستغفار، وكم يظلم نفسه من يعتقد أن ذنبه يعظم من أن يغفره الله، أو أن خطأه لا تسعه رحمةُ الله، تعالى الله عن ذلك سبحانه.

استغفار عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: (**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخِذوني وأميَّ إلهَين مِن دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ إنْ كنتُ قلتُه فقد علِمتَه تعلَمُ ما في نفسي ولا أعلَمُ ما في نفْسك إنّك أنت علّامُ الغُيوب. ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربَّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمت فيهم فلما توفّيتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنت على كل شيء شهيدٌ. إنْ تعذّبهم فإنّهم عبادك وإنْ تغفرْ لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيمُ**)[28]؛ ونحن إذا تأملنا هذا المشهد القرآني من مشاهد التوبة والاستغفار وجدنا أمراً عجيباً، وهو أن عيسى عليه السلام لما ذكر الاستغفار

[28] المائدة 116-118

إنما ذكره في معرض الكلام على مَن خالَفَه مِن قومه الذين أُرسل إليهم ليدعوهم إلى عبادة الله وحده فعبدوه من دون الله، وأراد الله تعالى أن يقطع حُجة من ادعى ألوهية عيسى وأمه فقرّره هذا التقرير : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)؛ فكبيرةُ الشِرك هذه إنما اقترفها مَن كفر بالله ممن أُرسل إليهم عيسى عليه السلام، لكنه صلوات الله وسلامه عليه لكمال أدبه مع الله تعالى رأى في عبادة قومِه إياه مِن دون الله ما يوجب البراءة من ذلك وما يوجب ذكر المغفرة وتوحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فوحَّد الله في ربوبيته حيث قال: (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأن عيسى عليه السلام ليس ربّاً خالقاً بل الله هو الرب الخالق، والرب الخالق هو المستحق للألوهية وحده، ثم وحّد عيسى عليه السلام الله في ألوهيته حيث قال: (ما قلت هم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم)، ثم كان توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته، وذِكرُ ما يناسب المقام من ذلك؛ فوحَّد الله باسمه العلّام وبصفته العلم، وباسمه الشهيد وصفته الشهادة، وباسمه الرقيب وصفته الرقابة، وباسمه الغفور وصفته المغفرة، وباسمه العزيز وصفته العزة، وباسمه الحكيم وصفته الحكمة، سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجلت صفاته، فيا له

من مقام رفيع من مقامات الاستغفار، أن يذكر العبدُ ذنبَ غيره فيغارُ على الله، ويستعظم وقوع المعصية في مُلك الله، فيستغفر الله تعالى لما اقترفه غيره، وهذه مرتبةٌ عاليةٌ تُترجم حبَّ الله تعالى في قلب عبده، حتى إنه ليغار على حرماتِ الله تعالى فيستغفر الله لما يقع في ملكه مما لا يرضاه، لا سيما إذا كان ما يقع من المعصية من غيره متعلقاً به هو، وهذا دأب الصالحين؛ يتبرأون مِن الغلاة فيهم، ويستغفرون الله لما يقع من الغلو بسببهم. والشاهد هنا لزوم أولي العزم من الرسل الذين عصمهم الله تعالى عن الوقوع في المعاصي للاستغفار في كل الأحوال دون تعلّق ذلك بتقصيرٍ بعينه أو زلةٍ بعينها، لأن العبد الذي كملت معرفته بالله كمُل إدراكه للزوم التقصير له في حق الله، فلم يبرح عتبة الاستغفار، ولم يفتر عن الإنابة والأوبة إلى الله تعالى، فليدرك ذلك أمثالي من المذنبين العصاة، وليعلم أنه مهما أوغل العبد في المعصية، ومهما غلبته نفسه الأمارة بالسوء على الذنوب فإنه لا سبيل إلا سبيل الرسل والأنبياء الذين سنّوا لنا سنة التوبة والاستغفار بتعليم الله الواحد القهار لهم ذلك، فهو العزيز لا يمتنع عليه شيء، فكيف يمتنع عليه أن يغفر لمن شاء ما شاء، وهو الحكيم الذي لا تغالب حكمته، فكيف لا يضع رحمته ومغفرته في الموضع الذي

تقتضيه حكمته، وقد أخبر عز وجل أن موضعها كل عبدٍ موحِّدٍ منطرحٍ على عتبة الاستغفار والتوبة مستنٍ بسنن الأنبياء والمرسلين. هكذا فليكن حسن الظن بالله، لا استخفافاً بالذنب أو المعصية، ولكن تعظيماً لمقام الخالق المعبود وحده سبحانه. وهنا قاعدةٌ عظيمة وهي **أن الذنوب لما كانت خطيرةً على من اقترفها وعلى من كان حوله ممن علم بها، كان من واجب الكل الاستغفار والتوبة منها غيرةً على حرمات الله، وطلباً للنجاة من عموم الفتنة بها**، ولا يعرف هذا إلا من عرف حق الله تعالى على عبيده.

استغفار خاتم المرسلين مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ:

قال الله تعالى مخاطباً رسوله مُحَمَّداً ﷺ: **(إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحق لِتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً)**[29]، وقال الله تعالى: **(وقل ربِّ اغفِر وارحم وأنت خير الراحمين)**[30]، وقال الله تعالى: **(فاصبر إنَّ وعْد الله حقٌّ واستغفر لذنْبِك**

[29] النساء 105-106
[30] المؤمنون 118

وسبّح بحمد ربك بالعشيِّ والإبكار)[31]، وقال الله تعالى: **(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنْبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلَم متقلَّبكم ومثواكم)**[32]، وقال الله تعالى: **(لِيغفر لك الله ما تَقدَّم مِن ذنْبك وما تأخر ويُتمَّ نعمته عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً)**[33]، وقال تعالى: **(فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)**[34]؛ فهذه ستة مواضع في القرآن الكريم قد خاطب الله تعالى بها نبيه مُحَمَّداً ﷺ يأمره سبحانه وتعالى بالاستغفار، ويذكره نعمته عليه بالمغفرة، وهو ﷺ صفوة خلقه وخاتم رسله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وعصَمه من الذنوب والمعاصي، وجعله أسوةً للناس، ومع ذلك كله يبين الله تعالى له وللأمة من بعده أنه لا غنى لأحد عن الاستغفار، نعم كلٌ يستغفر مما هو ذنبٌ وتقصيرٌ بالنسبة لمرتبته من الإيمان والمعرفة بالله، ولكن **أصل المسألة عدم استغناء أحد عن الاستغفار**، وافتقار العباد كلهم إلى مغفرة الله، ووجوب لزوم طلب هذه المغفرة بألوان التذلل والفقر والعبودية بين يدي الله، وبكل ما يتوسل به من الحسنات المذهِبة للسيئات الماحية لها بإذن الله. وإنّ من يظن أن ذنبه أكبر من أن يستغفر الله منه أو يظن أن ذنبه

---

[31] غافر 55
[32] محمد 19
[33] الفتح 2
[34] النصر 3

أكبر من أن يغفره الله تعالى له فقد أساء الظن بالله، وقد جهل قدر الله، وأما من نظر إلى كمال النبي ﷺ وعصمة الله تعالى له، ثم أمرُه له سبحانه بعد ذلك بالاستغفار، ونظر إلى لزوم النبي ﷺ للاستغفار في كل أحواله فإنه يدرك أن مقام الاستغفار هو مقام تحقيق العبودية لله تعالى، وأن هذه الطاعة العظيمة تمحو بإذن لله كل ما يأتي به العبد من ذنوبٍ يطرحها بين يدي الله معلناً بلسان حاله ومقاله أنه يأتي بذنوبٍ عظيمة عصى بها الله تعالى، يأتي بها إلى الله لأنه يُقر ويؤمن ويوقن أن لا ماحيَ لها، ولا غافرَ لها إلا الله تعالى، فإذا كان صادقاً في ذلك كانت التوبة من الله والمغفرة، وهو المطلوب.

هذه هي إذاً سنة الرسل والأنبياء في لزوم الاستغفار، ونحن مأمورون بمتابعتهم في سنتهم، والموفق مَن وفقه الله تعالى فأقبل عليه بذنوبه وآثامه وخطاياه طارحاً إياها على عتبة الاستغفار لاجئاً إلى الله تعالى وحده، موقناً بستر الله تعالى لها وعفوه عما سلف، عازماً العقد على ألّا يعود، وموَطِّناً نفسه على الطاعة ما أمكن، والمخذولُ مَن خذله الله عن ذلك لإعراضه عن باب المغفرة، وسوء ظنه بالله، واستسلامه إلى المكيدة الإبليسة المقنِطة من رَوح الله المؤيِسة من غفرانه، نعوذ بالله من الخذلان.

هذه إذاً سبيل الرسل، وهذه سنتهم، فلنقفهم على أثرهم، ولنلتزم سنتهم، عسى الله تعالى أن يغفر الذنوب، ويستر العيوب، إنه الغفار وحده علّام الغيوب.

فصل: في مشاهد عظيمة من التوبة في القرآن الكريم

لقد سجل القرآن الكريم لنا مشاهد عظيمة للتوبة التي وفق إليها طائفةً من عباده، لتكون مصداقاً لتحقق آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في خَلقه، ولتكون حادياً وأملاً يسوق المذنبين إلى التوبة، ويأخذ بهم إلى طريق الإنابة إلى الله عز وجل، لسان حالهم ومقالهم : إذا غفر الله لهؤلاء على عِظم ما أجرموه، وفداحة ما اقترفوه، فإن مغفرة الله تسعني كما وسعتهم، وإن رحمة الله تنالني كما نالتهم، فلا يتمكن الشيطان من تقنيطه من رحمة الله حينئذٍ، ولا تخذله نفسه عن الرجوع إلى الله بالاستغفار والتوبة الصادقة النصوح، وبين أيدينا بعض وقائع التوبة العظيمة التي سجلها لنا القرآن الكريم ؛ فلنتدبر:

توبة سحرة فرعون:

قال الله تعالى: (**قالوا يا موسى إما أن تُلقِيَ وإمّا أن نكونَ أوّل مَن أَلْقَى. قال بل ألقُوا فإذا حِبَالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهم أنَّها تَسْعَى. فأوجَسَ في نَفْسِه خِيفةً موسى. قُلنا لا تَخَفْ إنّك أنت الأعلى. وألْقِ ما في**

يمينك تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إنّما صنَعُوا كَيْدُ ساحرٍ ولا يُفلِحُ الساحرُ حيث أَتَى. فأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالوا آمنَّا بِرَبِّ هارونَ وموسى. قال آمنْتُم له قَبْل أنْ آذَنَ لكم إنّه لَكبيرُكم الذي علَّمكم السِحر فَلَأُقطِّعَنَّ أيدِيَكم وأرجُلَكم مِن خِلافٍ ولَأُصَلِّبَنَّكم في جُذُوع النخل ولَتَعلَمُنَّ أيّناً أشدُّ عذاباً وأبقى. قالوا لن نُؤثِرَك على ما جاءنا مِن البيِّنات والذي فَطَرَنا فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنّما تقضِي هذه الحياةَ الدنيا. إنّا آمنّا بربِّنا لِيغفِر لنا خطايانا وما أكرَهْتنا عليه مِن السِحر واللهُ خيرٌ وأبقى. إنّه مَن يأتِ ربَّه مُجرماً فإنَّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحي. ومَن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلَى. جنّات عدْنٍ تجري مِن تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ مَن تَزَكَّى)[35]، لقد رصد القرآن الكريم هذا المشهد العظيم من مشاهد الاستغفار والتوبة في موقفٍ مهيبٍ رهيبٍ؛ موقف مخاصمة أهل الحق وأهل الباطل على مشهدٍ من الناس عظيم، وكان سحرةُ فرعون دعامةً رئيسة من دعامات الحكم الفرعوني الطاغوتي، يسترهب بهم فرعون الناس ويُخضعهم لحكمه من خلالهم، يرهبهم بسحرهم، ويسلب عقولهم بفنونهم الباطلة،

[35] طه 65-76

ويرضيهم على ذلك بالحُظوة لديه وبالنعيم العابر بجعلهم من حاشيته وخاصته المقربين. وكانت هذه العلاقة المتبادلة القائمة على دعم باطل الكفر بباطل السحر دأبَ فرعون وسحرته، حتى إن فرعون لم يشك ولم يرتب في كون السحرة حجته الدامغة التي سيقهر بها موسى عليه السلام على مرأى الناس ومسمعهم، ولم يكن السحرة ينتظرون أجراً على ذلك سوى تمكين حظوتهم لدى فرعون كما قال تعالى: (**فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لَأجراً إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذاً لَمِن المقرَّبين**)[36]، وأعجب ما في هذه العلاقة النفعية المتبادلة أن كلاً مِن طَرَفيها كان على يقينٍ في قرارة نفسه أنه على الباطل؛ ففرعون المدعي للألوهية يدرك في قرارة نفسه أنه ليس بربٍ أو إله على الحقيقة، والسحرة في قرارة أنفسهم يدركون أن سحرهم باطل وأن فرعونهم باطلٌ مثله، ولكنها الشهوات التي تورث الغفلة وتعمي القلوب قبل أن تعمي الأعين، وإن ما نريد التنبيه عليه في هذا المشهد هو فداحة هذه الذنوب وعظم هذه الكبائر، فقد جمع فرعون وسَحَرَته كبيرتين موبقتين عظيمتين هما الشرك والسحر، فضلاً عما استباحوا بهاتين الكبيرتين من حرمات الناس دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وكانوا على هاتين الكبيرتين الموبقتين مُصِرّين، ولهما

[36] الشعراء 41-42

ملازمين حتى كانت لهم ديدناً ووصفاً لازماً، فلا يُعرَف فرعون إلا بطغيانه على مقام الربوبية والألوهية، ولا يُعرف السحرة إلا بسحرهم، حتى يكاد يستقر في قلب من عرفهما أن ذنوب فرعون وسحرته أكبر من أن تُغفر، وأن موبقاتهم اللاتي ارتكبوها ولازموها وكرروها أعظم من أن يُتاب منها فضلاً عن أن تُقبل هذه التوبة منهم، **وهنا سر هذا المشهد العظيم وهو أن: لا ذنب أعظم من أن يُتاب منه، ولا ذنب أعظم من أن يغفر الله لصاحبه**، وذلك حين يوفق الله تعالى المذنب للتوبة، وهنا عند لحظة الصدق هذه كان افتراق فرعون والسحرة حيث عاينوا الحق، وظهرت حجة الله عليهم على يد رسوله موسى عليه السلام، وأيقن فرعون بهتان حجته، وظهر على الملأ كذب دعواه، كما أيقن السحرة بطلان سحرهم، وأن ما عاينوه من معجزة موسى عليه السلام ليس من قبيل سحرهم الباطل، وإنما هو حجة الله تعالى عليهم وعلى الناس أجمعين، فلما تحققت هداية الإرشاد لكلٍ من فرعون والسحرة على قَدَمٍ سواء، كان الافتراق في هداية التوفيق بحسب إقبال المقبِل منهم على الله وإعراض المعرض منهم عنه. والمقصود أنه لا ذنب ولا معصية أعظم من أن يغفر الله لمرتكبها، وإنما المعوَّل على توبة الله على العبد بتوفيقه للتوبة، ثم صدق العبد في

التوبة، ثم قبول الله تعالى للتوبة، فهذه **المراتب الثلاثة للتوبة** تتطلب إقبالاً من العبد لا إعراضاً، وصدقاً من العبد لا نفاقاً، واعترافاً بنعمة الله بقبول التوبة لا نكراناً؛ فمن آيس نفسه من رحمة الله فقد أساء الظن بالله وأعرض عن رحمته، ومن ظن أن التوبة بيده يتوب متى شاء ويعود للذنب متى شاء فقد أكذب نفسه في توبته، ومن أحسن الظن بنفسه حين يتوب ويستغفر فقد أسلمها للمهالِك وجحد ربَّه نعمته عليه بالتوفيق للتوبة، **وتأمل هذه المراتب في مشهد توبة سحرة فرعون**؛ فإنهم حين رأوا علامة صدق موسى عليه السلام في دعوته إلى توحيد الله عز وجل عرفوا الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فلم ييأسوا من رحمة الله بل أقبلوا عليه جل وعز : (فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى) وهذا غاية الإقبال على الله والاستسلام له والانقياد لأمره، فهذه أولى المراتب، ثم إنهم لما امتُحنوا في توبتهم بتهديد فرعون لهم بالقتل والتقطيع والصلب ظهرت منهم علامات صدق التوبة : (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) وهذه ثاني المراتب حيث يمحص الله التائب ليعلَم صدقه في توبته،

وقد يكون هذا التمحيص ألماً وندماً يجده التائب في قلبه حتى يشرح الله صدره بأمارات قبول التوبة، وقد يكون ابتلاءً بأذى يناله من الناس كما هو حال السحرة مع فرعون، فإنهم لما صدقوا الله في توبتهم لم يأبهوا بعذاب فرعون بل قالوا بكل قوة وشموخ (اقض ما أنت قاض) بل انظر كيف أورث ذل التوبة إلى الله عِزَّةَ المؤمن على الكافر: (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي أنك يا فرعون لست بشيء يؤبه له، بل نحن – وإن عذَّبتنا– أعزُّ منك في الدنيا، وأرجى نجاةً في الآخرة، وهذا كله أثر التوبة والاستغفار الصادق المبني على الإيمان بالله تعالى: (إنّا آمنا بربنا)، وأما ثالث المراتب وهي قبول الله تعالى للتوبة فأمرٌ لا يملكه المكلف وإنما سعيه في تحصيل أسبابه، ولقد سعى السحرة لتحقيق القبول وأخذوا بأسبابه حين حققوا إقرارهم بتوحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته، وأنه وحده الذي يغفر ذنوب من آمن به، لأنه وحده سبحانه الذي لا تضره معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة المطيعين، فهو سبحانه وتعالى خيرٌ من كل شيء وأبقى من كل شيء، ليس كمثله شيء، يغفر ما شاء لمن شاء وهذا معنى قول السحرة: (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا

يحي. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء مَن تزَكَّى) فهو تعرُّضٌ لقبول الله توبتهم، وتوسلٌ إلى ذلك بإيمانهم بأسماء الله وصفاته، وبإيمانهم باليوم الآخر والجنة والنار، وأن الفائز من تطهر إلى الله فطهَّره الله وزكَّاه، وهذه ثالث المراتب.

فتأمل لو أن السحرة استعظموا ذنوبهم السالفة – وهي عظيمةٌ في ذاتها – فأيسوا من التوبة، وتأمل لو أن السحرة لما بهتتهم حجة موسى عليه السلام أظهروا التوبة أمام الناس حياءً وهم يضمرون المضي في ولائهم لفرعون وتقريرهم لباطله فلم يصدقوا الله في توبتهم، وتأمل لو أن السحرة لم يؤمنوا يقيناً بالجنة والنار وبعدل الله وحده في مجازاة المسيء وإثابة المحسن فهابوا فرعون وعذابه بدلاً من أن يهابوا الله وعذابه، أو آثروا حظوتهم لدى فرعون على حظوتهم في جنة الخلد التي أعد الله لعباده المتقين، تأمل هذه المراتب لتعلم **مراتب الخذلان عن التوبة** وهي: سوء الظن بالله، وحسن الظن بالنفس، وإيثار العاجلة على الآجلة، فهذه هي المراتب الفرعونية التي خذلت صاحبها عن التوبة، ومقابل ذلك ما تقدم من مراتب التوفيق للتوبة التي وفق الله تعالى لها سحرة فرعون،

فيا له من مشهدٍ عظيمٍ، ويا لها من توبةٍ عظيمةٍ، ويا لها من مغفرةٍ وتوبةٍ أورثت إيماناً بعد كفر، وعزاً بعد ذل، وجنةً بعد نار.

فيا نفسيَ العاصيةَ المذنبةَ، لعلك مع ما تقدم منك لم تبلغي ما بلغه سحرة فرعون من موبقات السحر والشرك واستباحة الدماء والأعراض والأموال بذلك، فإذا تاب سحرة فرعون من ذلك وصدقوا الله في توبتهم، وأصدقهم الله بالتوبة عليهم في قرآنٍ يُتلى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، فما يمنعك أن تتوبي كما تابوا، وتصدقي كما صدقوا، وتحسني الظن بقبول الله ذلك كما أحسنوا، فلا يكن سحرة فرعون أسعد بالتوبة منك لله عز وجل، فإن رحمة الله تسعك كما وسعتهم، وإن مغفرة الله تنالك كما نالتهم، وإن توبة الله قريبٌ منك كما قربت منهم.

ولعل من المناسب أن نشير إلى بعض اللفتات المهمة في مشهد توبة سحرة فرعون:

- لقد كانت ذنوب سحرة فرعون عظيمة من جهة أنهم كانوا يمارسون السحر – وهو من الموبقات– في دعم حكم الطاغوت الفرعوني الفاجر المدَّعي للألوهية، وفي هذا ما فيه من تطويع وإخضاع الشعب لحكم

الطاغوت، وتمكين أسباب ضلالهم وصدهم عن الهداية الإيمانية، ومع ذلك قَبِل الله منهم توبتهم، وفي هذا تنبيهٌ لكل من يدعمون حكم الطاغوت الذي يحكم بغير شرع الله، ويحمل الناس على القوانين الوضعية الوضيعة من أهل الفكر أو المال أو القوة أن يسارعوا بالتوبة إلى الله عز وجل قبل أن يتوفاهم الله على هذه الذنوب الماحقة، وأن لا يسترسلوا في دعم الطواغيت وحكمهم يأساً منهم أن يتوب الله عليهم.

- إن سحرة فرعون كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أن سحرهم باطل، وأن ما كان عليه فرعون من ادعاء الربوبية والألوهية باطل، ولكنهم كانوا في نعمة الملك والحظوة الدنيوية الزائلة سادرون لاهون غافلون، حتى أتتهم فرصة التوبة إلى الله فأقبلوا عليه دون تردد، وهكذا يجب على العاصي أن يغتنم فرصة التوبة إذا سنحت له، فإن الله تعالى يتوب على العبد ليتوب، فإذا أعرض العبد عن فرصة التوبة التي عرضها الله تعالى له برحمته، فلربما حرمه من التوبة عقوبةً على ذلك بعدله، فلا يُسوِّفنّ أحدٌ بالتوبة، بل البدار البدار، فما يدري المرء أيعيش ليتوب، أم أيوفق لتوبة أخرى إن هو أعرض عن الفرصة السانحة له.

- إن توبة سحرة فرعون جاءت مقرونةً بابتلاءٍ شديدٍ للسحرة في دينهم بعد أن كفروا بالطاغوت وأسلموا لله سبحانه وتعالى، فوطَّنوا أنفسهم على تحمُّل الابتلاء لِما ذاقوه من حلاوة الإيمان، وهذا مصداق حديث النبي ﷺ: "ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان" وذكر منها :" ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار"[37]، فالإيمان بالله له حلاوة، والإيمان بالله له تمحيصٌ وابتلاء، ولا يصبر على البلاء بإذن الله إلا من كان إيمانه صادقاً محقَّقاً بإذن الله، بحيث يجد حلاوته التي تجعله يكره أن يعود في الكفر بعد نجاته منه ،فَلْيَسعَ المرء قي تحقيق إيمانه وتخليصه من شوائب النفاق والجهل بعظيم حق الله تعالى على عباده، ليورثه ذلك حلاوةً تعينه على تحمل البلاء والفتنة في الدين.
- أهمية الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار في مواجهة الابتلاء في الدنيا، حتى يعلم المكلف أن أي بلاءٍ أو فتنةٍ أو عذابٍ يصيبه في الدنيا من أجل إيمانه فإن عذاب النار في الآخرة أشد منها وأدوم، وأن أي لذةٍ أو شهوةٍ فانيةٍ تعرض له في الدنيا ليبيع دينه لأجلها فإن لذات الجنة أعظم

[37] الحديث بتمامه: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار" متفق عليه واللفظ للبخاري

منها وأدوم، فلا يؤثرنَّ عاقلٌ لذةً فانيةً على لذةٍ خالدةٍ، ولا يقدِّمنّ عاقلٌ مخافة عذابٍ زائلٍ على عذابٍ دائمٍ أشد، فهذه قاعدة مهمة تعين المؤمن على مواجهة فتن الدنيا حين تعرض له في دينه.

توبة قوم يونس:

قال الله تعالى: (**إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم. فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمَّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين**)[38]، لقد جرت سنة الله الشرعية في عباده أن لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً، كما جرت سنته الشرعية أن يفتح لهم باب التوبة ما لم ينقضي وقتها إما بحضور الموت كما قال تعالى: (**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبت الآن**)[39]، أو الموت على الكفر كما قال تعالى: (**ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً**

[38] يونس 96-98
[39] النساء 18

أليماً)[40] أو حضور العذاب كما قال تعالى: **(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)**[41] أو طلوع الشمس من مغربها كما قال تعالى: **(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت مِن قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً)**[42]، ولكن الله تعالى يخرق سننه الشرعية وسننه الكونية متى شاء – لا يُسأل عما يفعل سبحانه وهم يُسألون – ليعلَم عبادُه أن الله تعالى هو الملك الحق، يحكم بما شاء لمن شاء كيفما شاء، لا تقيِّده سُنّة، ولا تغلبه قوة، ولا يمتنع عليه شيءٌ سبحانه. وإن في هذا المشهد العظيم – مشهد توبة قوم يونس عليه السلام وهم قد عاينوا العذاب – وقبول الله تعالى التوبة منهم مع أن سنته قد مضت في عدم قبول التوبة عند معاينة العذاب، أقول: إن في هذا المشهد بشرى عظيمةً لكل عبدٍ أن لا يرسو بسفينة التوبة عند شاطئ اليأس البتة، بل يبحر بها نحو الله عز وجل مهما بلغت ذنوبه وكثرت خطاياه، وهو يعتقد اعتقاداً راسخاً أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه مهما أقبل على الله تعالى موحِّداً لله، لا يشرك به

---

[40] النساء 18

[41] غافر 84-85

[42] الأنعام 158، ولقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم كن آمنت من قبل)متفق عليه واللفظ للبخاري

شيئاً، نادماً على ما فات مهما عظُم، فإن الله تعالى لا يعجزه شيءٌ عن مغفرة ذنبه، ولا يمنعه شيءٌ عن قبول توبته، بل الأمر كله راجعٌ إلى محض المشيئة، فما الذي يمنع المذنب إذاً من السعي نحو التوبة؟

والمقصود أن هذا المشهد الرهيب المهيب قد بلغ بالمذنبين غاية ما يمكن بلوغه من فوات قبول التوبة، ومع ذلك تابوا توبةً قبلها الله منهم على خلاف سننه فيمن سواهم، فيجدر بهذا المشهد أن يكون حادياً يحدو المذنب للإسراع بالتوبة ما أمكن ويمنعه من اليأس من التوبة ما أمكن، فلا يقنطَنَّ عبدٌ من رحمة ربه، ولا ييأسنّ من حصول آثار التوبة طالما لم يتلبس به العذاب[43]، ولكن لا يُسوِّف المرء حتى يبلغ حال قوم يونس، فما يدريه أن يوفق للتوبة عند معاينة أسباب العذاب، وما يدريه أن الله يقبل منه؟ فليس المقصود أن نفهم من هذا المشهد صواب تسويف التوبة وتأخيرها، وإنما **نفهم من هذا المشهد الإقبال على الله بالتوبة إن وفقه الله لها مهما قرب أجله أو شارف على معاينة أسباب العذاب، فالمقصود قطع اليأس لا الالتهاء بالآمال والأماني الكاذبة**، فليتنبه لهذا.

[43] وهذا قول جمع من المفسرين من أن قوم يونس عاينوا أسباب العذاب ومقدمته ولم يتلبس بهم بعد، وانظر تفسير القرطبي 384/8، وابن كثير 34/2

توبة الثلاثة الذين خُلِّفوا:

قال الله تعالى: (**وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم**)[44]، وهذا مشهدٌ قرآنيٌ عظيمٌ آخر من مشاهد التوبة العجيبة التي وفق الله تعالى عباده العاصين إليها، يصوّر لنا فيه القرآن الكريم حال الثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم حيث تأخروا عن رسول الله ﷺ فلم يلحقوا بغزوة تبوك كسلاً وتسويفاً لا ردةً ولا نفاقاً، لكن لما كان ما كان منهم – وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهم – وآب رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبادر من تخلف من المنافقين إلى الاعتذار إلى رسول الله ﷺ فقبل عذرَهم على الظاهر منهم، وتخلف هؤلاء الثلاثة وتأخروا عن الاعتذار إلى رسول الله ﷺ لأنهم لم يكونوا يلتمسون لأنفسهم العذر من فداحة ما صنعوا، ولِتمكُّن ألم الندامة والحسرة من قلوبهم حتى خجلوا أن يواجهوا رسول الله ﷺ بذنبهم، ولست أجد أفضل من سماع تفاصيل هذه القصة العجيبة من لسان أحد أصحابها وهو الصحابي الجليل

[44] التوبة - 118

كعب بن مالك ﷺ، فإن فيها من روائع النفس المؤمنة وتفاصيل الصراع بين مراتب الأمارة بالسوء واللوامة والمطمئنة ما يمثل منهجاً وعبرةً وحادياً لكل مسلمٍ خذلته نفسه فظلمها، أو غلبته لحظة جهلٍ فوقع فريستها، فلنتدبر القصة كما رواها الإمام البخاري قال: حدثنا يحيى بن بُكَيْرٍ: حدثنا اللَّيْثُ: عن عُقَيْلٍ: عن بن شِهَابٍ: عن عبد الرحمن بن عبد اللَّهِ بن كَعْبِ بن مَالِكٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بن كَعْبِ بن مَالِكٍ – وكان قَائِدَ كَعْبٍ من بَنِيهِ حين عَمِيَ– قال: سمعت كَعْبَ بن مَالِكٍ يحدث حين تَخَلَّفَ عن قِصَّةِ تَبُوكَ قال كَعْبٌ:" لم أَتَخَلَّفْ عن رسول اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلا في غَزْوَةِ تَبُوكَ، غير أَنِّي كنت تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ولم يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عنها إنما خَرَجَ رسول اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حتى جَمَعَ الله بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ على غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حين تَوَاثَقْنَا على الْإِسْلَامِ، وما أُحِبُّ أَنَّ لي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كانت بَدْرٌ أَذْكَرَ في الناس منها؛ كان من خَبَرِي أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ حين تَخَلَّفْتُ عنه في تِلْكَ الْغَزَاةِ، والله ما اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حتى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الْغَزْوَةِ، ولم يَكُنْ رسول اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حتى كانت تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رسول اللَّهِ ﷺ في حَرٍّ

شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مع رسول اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ ولا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ- قال كَعْبٌ: فما رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى له ما لم يَنْزِلْ فيه وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تِلْكَ الْغَزْوَةَ حين طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ معه فَطَفِقْتُ أغدو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ ولم أَقْضِ شيئاً، فَأَقُولُ في نَفْسِي: أنا قَادِرٌ عليه، فلم يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حتى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رسول اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ معه ولم أَقْضِ من جَهَازِي شيئاً، فقلت أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أو يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئاً، فلم يَزَلْ بِي حتى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ -وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ- فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، فَكُنْتُ إذا خَرَجْتُ في الناس بَعْدَ خُرُوجِ رسول اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إلا رَجُلًا مَغْمُوصاً عليه النِّفَاقُ أو رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضُّعَفَاءِ ولم يَذْكُرْنِي رسول اللَّهِ ﷺ حتى بَلَغَ تَبُوكَ فقال وهو جَالِسٌ في الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ؟ فقال رَجُلٌ من بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ

بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ في عطفيه، فقال مُعَاذُ بن جَبَلٍ: بِئْسَ ما قُلْتَ، والله يا رَسُولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلا خَيْرًا، فَسَكَتَ رسول اللَّهِ ﷺ. قال كَعْبُ بن مَالِكٍ: فلما بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ من سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ على ذلك بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ من أَهْلِي، فلما قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قد أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ منه أَبَدًا بِشَيْءٍ فيه كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رسول اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فلما فَعَلَ ذلك جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إليه وَيَحْلِفُونَ له – وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا – فَقَبِلَ منهم رسول اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لهم وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فلما سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قال: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حتى جَلَسْتُ بين يَدَيْهِ، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فقلت: بَلَى، **إني والله يا رسول الله لو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي والله لقد عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فيه إني لَأَرْجُو فيه**

عَفْوَ اللَّهِ، لَا واللهِ ما كان لي من عُذْرٍ، واللهِ ما كنت قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فقال رسول اللَّهِ ﷺ : أَمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ. فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ من بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لي واللهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قبل هذا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إليه الْمُتَخَلِّفُونَ قد كان كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رسول اللَّهِ ﷺ لك، فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يؤنبونني حتى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قلت لهم: هل لَقِيَ هذا مَعِي أَحَدٌ؟ قالوا: نعم رَجُلَانِ قالا مِثْلَ ما قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ ما قِيلَ لك، فقلت: من هُمَا قالوا مُرَارَةُ بن الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ بن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قد شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حين ذَكَرُوهُمَا لي، وَنَهَى رسول اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عن كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ من بَيْنِ من تَخَلَّفَ عنه، فَاجْتَنَبَنَا الناس وَتَغَيَّرُوا لنا حتى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الْأَرْضُ فما هِيَ التي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا على ذلك خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا في بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أنا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مع الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ في الْأَسْوَاقِ ولا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ في نَفْسِي هل

حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا منه فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فإذا أَقْبَلْتُ على صَلَاتِي أَقْبَلَ إلي وإذا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حتى إذا طَالَ عَلَيَّ ذلك من جَفْوَةِ الناس مَشَيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبي قَتَادَةَ – وهو ابن عَمِّي وَأَحَبُّ الناس إلي فَسَلَّمْتُ عليه فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فقلت يا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هل تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ فقال: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قال: فَبَيْنَا أنا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إذا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاطِ أَهْلِ الشام مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يقول: من يَدُلُّ على كَعْبِ بن مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ الناس يُشِيرُونَ له حتى إذا جَاءَنِي دَفَعَ إلي كِتَابًا من مَلِكِ غَسَّانَ فإذا فيه: أَمَّا بَعْدُ فإنه قد بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قد جَفَاكَ، ولم يَجْعَلْكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فقلت لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا من الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بها، حتى إذا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً من الْخَمْسِينَ إذا رسول رسول اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فقلت: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قال: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا ولا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلك، فقلت لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حتى يَقْضِيَ

الله في هذا الْأَمْرِ، قال كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بن أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ ليس له خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قال: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ، قالت: إنه والله ما بِهِ حَرَكَةٌ إلى شَيْءٍ، والله ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كان من أَمْرِهِ ما كان إلى يَوْمِهِ هذا، فقال لي[45] بَعْضُ أَهْلِي: لو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في امْرَأَتِكَ كما أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بن أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فقلت: والله لَا أَسْتَأْذِنُ فيها رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وما يُدْرِينِي ما يقول رسول اللَّهِ ﷺ إذا اسْتَأْذَنْتُهُ فيها وأنا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلك عَشْرَ لَيَالٍ حتى كَمَلَتْ لنا خَمْسُونَ لَيْلَةً من حين نهى رسول اللَّهِ ﷺ عن كَلَامِنَا فلما صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وأنا على ظَهْرِ بَيْتٍ من بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أنا جَالِسٌ على الْحَالِ التي ذَكَرَ الله قد ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سمعت صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى على جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بن مَالِكٍ أَبْشِرْ، قال: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قد جاء فَرَجٌ، وَآذَنَ رسول اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حين صلى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ الناس يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إلي رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ من أَسْلَمَ فَأَوْفَى على الْجَبَلِ وكان الصَّوْتُ أَسْرَعَ من الْفَرَسِ، فلما جَاءَنِي الذي

[45] عاد الحديث إلى كعب بن مالك

سمعت صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ والله ما أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إلى رسول اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي الناس فَوْجًا فَوْجًا يهنونني بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ قال كَعْبٌ: حتى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فإذا رسول اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ الناس فَقَامَ إلي طَلْحَةُ بن عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي والله ما قام إلي رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ ولا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قال كَعْبٌ فلما سَلَّمْتُ على رسول اللَّهِ ﷺ قال رسول اللَّهِ ﷺ: وهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ من السُّرُورِ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قال: قلت أَمِنْ عِنْدِكَ يا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ من عِنْدِ اللَّهِ، قال: لَا بَلْ من عِنْدِ اللَّهِ، وكان رسول اللَّهِ ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلك منه فلما جَلَسْتُ بين يَدَيْهِ قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ **إِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ من مَالِي صَدَقَةً إلى اللَّهِ وَإِلَى رسول اللَّهِ**، قال رسول اللَّهِ ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لك، قلت: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذي بِخَيْبَرَ، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ **إِنَّ اللَّهَ إنما نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إلا صِدْقًا ما لقيت**، فَوَاللَّهِ ما أَعْلَمُ أَحَدًا من الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ الله في صِدْقِ الحديث مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ

ذَكَرْتُ ذلك لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلى يَوْمِي هذا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ الله على رَسُولِهِ ﷺ (لقد تَابَ الله على النبي وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) إلى قَوْلِهِ (وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ)، فَوَاللَّهِ ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ من نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ في نَفْسِي من صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن اللَّهَ قال لِلَّذِينَ كَذَبُوا حين أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ ما قال لِأَحَدٍ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ) إلى قَوْلِهِ (فإن اللَّهَ لَا يَرْضَى عن الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) قال كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عن أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهم رسول اللَّهِ ﷺ حين حَلَفُوا له فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لهم، وَأَرْجَأَ رسول اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حتى قَضَى الله فيه فَبِذَلِكَ قال الله (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وَلَيْسَ الذي ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفْنَا عن الْغَزْوِ، إنما هو تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له وَاعْتَذَرَ إليه فَقَبِلَ منه"[46] ، انتهى الحديث.

والحقيقة أن هذا الحديث ناطقٌ بنفسه، لا يحتاج إلى مزيد بيان، ولكن يجدر التنبيه على بعض المواضع المهمة فيه لأنها لصيقة بحال المذنب بعد الذنب، وما

[46] متفق عليه واللفظ للبخاري

يعتوره من نزاعٍ وصراعٍ داخلي، وما يتجاذبه من دواعي الرحمن ودواعي الشيطان بعد وقوع المعصية بعد أن غلب داعي الهوى داعي الطاعة عند وقوع المعصية، فلنتدبر:

- إن هذا الذنب العظيم وهو التخلف عن أمر رسول الله ﷺ بالخروج في غزوة تبوك مع ما بيَّنه كعب بن مالك من عِظم شأنها واهتمام رسول الله ﷺ لها وعزم كعب بن مالك على الخروج مع توانيه في تعاطي أسباب الخروج وتسويف نفسه له بقوله "أنا قادر"، "أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم"، وهو الصحابي الجليل صاحب السوابق العظيمة في الإسلام من شهود بيعة العقبة والخروج في سائر الغزوات – خلا غزوة بدر التي لم يعزم فيها رسول الله ﷺ على كل أحد – إن هذا الذنب من ها الصحابي الجليل دليلٌ على عدم حصانة أحد من الوقوع في الذنب[47]، وعلى أن على العبد ألا يتقاعس في تعهد نفسه بالصيانة والإصلاح ومغالبة دواعي الهوى والكسل والفتور عن الطاعات، فإنه لا يدري مِن أين يؤتى، وإن من أسباب هذه الصيانة أن يوطِّن نفسه على

[47] أي ممن لم يعصمه الله من ذلك كالرسل والأنبياء

حب الله ورسوله ﷺ، ويوطن نفسه على الصدق وسرعة الإنابة بعد الزلل، ويوطن نفسه على التوبة مهما بدر منه، ولتكن حسن سابقته مع الله ورسوله ﷺ حادياً له على طريق التوبة والإنابة، كي لا ينقض ما تقدم من عمله، ولا يُذهبه بالتمادي في معصيته والإصرار عليها وترك التوبة منها، فإن من ترك التوبة فقد أساء الظن بالله تعالى، وأساء الإتساء برسوله صلى الله عليهه وسلم. وإن من نظر منا إلى وقوع ذنب مثل ذنب الثلاثة الذين خلفوا مع مكانتهم وسابقتهم في الإسلام أدعى ألا تؤيسه نفسه والشيطان من البِدار إلى التوبة، بل يكون لسان حاله: قد وقع في الذنب من هو خيرٌ مني فتاب، فأنا أحوج إلى أن أتوب من ذنبي من أولئك الذين هم خير مني فلم يركنوا إلى مجرد أعمالهم السابقة بل بادروا إلى التوبة وأساؤوا الظن بأنفسهم وأحسنوا الظن بالله وحده.

- قوله رضي الله عنه "وليتني فعلت" أي ليته فعل ولحق بالجيش بعد خروجه، دليل على أهمية ركن الندم على المعصية في سياق التوبة منها والاستغفار إلى الله من وقوعها، **فما تاب من لم يندم، ولا استغفر من لم يتألم**، بل لا

يبالغ المرء إذا قال إن الندم على المعصية أقوى محركات التوبة والاستغفار، لأن الندم انعكاس لعودة الحال الإيمانية السابقة التي غابت ونقصت عن صاحبها حين وقوع الذنب، ولهذا فكلما كانت الحال الإيمانية قبل الذنب أقوى كلما كان الندم أشد وكان الرجوع أسرع، وهذا يؤكد أهمية تعهد المرء نفسه بإصلاح عقيدته وإيمانه على الدوام لأنه لا يعلم متى تخونه نفسه بالمعصية فيحتاج إلى تلك الصحوة الإيمانية التي ينقذه الله بها من التمادي في الذنب والقرار عليه.

- إن مرحلة ما بعد الوقوع في الذنب مرحلة حرجة جداً، لما يعتور المذنب فيها من صراع بين **مراتب النفس الثلاث**؛ فلقد تقدمت الإشارة إلى ندم كعب بن مالك على ذنبه "وليتني فعلت" وهذه مرتبة **النفس اللوامة**، وحدّث ﷺ كيف خطرت له خاطرة الكذب للخروج من ملامة رسول الله ﷺ:"وطفقت أتذكر الكذب" وهذه مرتبة **النفس الأمارة بالسوء**، كما حدث ﷺ كيف انتصرت بفضل الله تعالى مرتبة **النفس المطمئنة** حيث قال:"فأجمعت صدقه"، وهذا الصراع بين هذه المراتب الثلاثة مظنة توفيق العبد أو خذلانه، وكلما كان العبد أكثر

تعرفاً إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى،و كلما كان أكثر علماً بسنة رسول الله ﷺ ومنهج الصحابة رضوان الله عليهم كلما كان أكثر حظاً بتوفيق الله تعالى له بالركون إلى طمأنينة الإيمان والاستجابة إلى داعي الرحمن، أما من كان قبل التلبس بالمعصية غافلاً وجاهلاً بالله وعازفاً عن سنة رسول الله ﷺ فإنه يكون بعد المعصية أشد غفلةً وجهلاً وعزوفاً، ما لم يتداركه الله برحمةٍ تخرجه من ظلمات المعصية والجهل. والمقصود أن حال العبد قبل وقوع الذنب له أثرٌ عظيم في حاله بعد وقوع الذنب، وتأمل مصداق ذلك في قوله تعالى: (**إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون. وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يُقصرون**)[48]؛ قال الإمام الطبري رحمه الله في تأويل الآيتين:"وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم من زلة، وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيّاً إلى غيِّهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم

[48] الأعراف – 201-202

تقوى الله ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهو أبداً في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبداً لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش ولا الشيطان من مده منه"[49]، قلت: تأمل عبارة الطبري هذه فإنها نفيسةٌ جداً.

- قوله ﷺ حين جاءه الرسول النبطي من ملك غسان يدعوه إلى دار الكفر : "وهذا من البلاء" إشارة إلى البلاء المركب على الذنب من حيث فتنة العبد بما يمحص إيمانه؛ فأما المؤمن فيفر من الله إلى الله، وأما من ضعف إيمانه وضربت شجرة النفاق في قلبه جذورها فيفر من الله إلى الشيطان، فإذا به في غيّه يتمادى، وعن طريق التوبة والإنابة يضل، ولا دواء لهذا الداء إلا القطع:"فيممت بها التنور فسجرته بها" فلا تفكر أيها العاصي المذنب بعلاجٍ لذنبك سوى التوبة إلى الله، فإن غير الله لا يملك لذنبك غفراناً، ولا يملك لقلبك هدايةً ولا إنابة.
- إن هجر النكاية للعاصي المذنب وإن كان فيه ألمٌ عاجل فإن فيه السرور الآجل بما يتحقق بهذا الهجر من تنبيهٍ للغافل من غفلته، وزجرٍ للعاصي عن معصيته، ودفعٍ لنفسه على أبواب التوبة والإنابة إلى الله،

[49] تفسير الطبري – 159/9

فإذا آلم العبدَ المذنبَ هجرُ الناس له والمخلوقين، فليتذكر الخسارة الحاصلة بهجران رب العالمين له ونسيانه[50] له، فإذا رأى المذنب أن المخلوقين قد هجروه وقَلَوه فليسأل نفسه عن هجر الله له وقلوه له، وليكن ذلك حادياً يحدوه إلى سرعة الإنابة إلى الله عز وجل والتوبة له.

- إن من علامات التوبة النصوح وآثار التوبة الصادقة المتقبلة بإذن الله أن يوفق العبد التائب إلى عملٍ صالحٍ أو عبادةٍ يلتزمها كما بدر من كعب بن مالك ﷺ حيث تصدق بماله بعد أن تاب الله عليه، وحيث التزم الصدق بقية عمره، فكان هذا من علامات التوبة النصوح، وهذا من عجائب توفيق الله تعالى للتائب المخلص والمستغفر الصادق؛ أن يجعل الله تعالى حاله بعد التوبة من الذنب خيراً من حاله قبل الذنب. وبريد ذلك صدق الانكسار لله تعالى والانقياد لأمره بعد وقوع الذنب، وتعهد النفس بما يصلح شأنها كي لا تزل قدمٌ بعد بثبوتها، ومرد ذلك كله إلى توفيق الله تعالى، ولكن يسعى العبد بالأخذ بأسباب ذلك بكثرة الصدقة، والمثابرة على الاستغفار، ولا يركن إلى نفسه أو يعجبه استغفاره وتوبته، بل يبقى على تعهدها بالرعاية والصيانة مما قد

[50] نسيان الله لعبده هو الترك عقوبة له وليس النسيان الذي هو عدم الذكر فإن الله تعالى منزه عن مثل هذا النقص

ينكسها على أعقابها فتعود إلى الذنب والعياذ بالله. والمقصود أن **التزام طاعةٍ جديدةٍ بعد التوبة يعين العبد على التزام طريق الإنابة إلى الله ويقيه من الرجوع إلى الذنب والعصيان بإذن الله.**

هذه بعض اللفتات المستوحاة من قصة هذه التوبة العجيبة، ولو أفردنا كتاباً كاملاً لحديث كعب لما وسعنا، ولكن يعود المرء فيقرأ هذا الحديث مرةً بعد مرة فسينكشف له من أسرار التوبة والأحوال النفسية للتائبين المؤمنين الشيء العجيب.

فصل: نصوص عظيمة الرجاء في التوبة والمغفرة:

وهذا الفصل بشارة عظيمة لمن آلمه ذنبه، وأزعجته خطاياه، وتعّرض له إبليس بالمآيسة من التوبة، فلقد نزل الوحي قرآناً وسنةً يبشر التائب والمستغفر ببشاراتٍ عظيمةٍ تُذهب ألم المعصية بلذة الإنابة، وتبدد ظلمة الذنب بنور الطاعة، وتقمع المآيسة الإبليسية بالبشارة الرحمانية، فلنتدبر طائفة من هذه النصوص:

- قال تعالى: (**وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين**)[51]، فهذان صنفان من الناس ذكر الله عز وجل أنه سبجانه قد أعدَّ لهم جناتٍ عرضها السماوات والأرض ودعاهم إلى

[51] آل عمران 133-136

المسارعة إليها بسلوك سبيل الاستغفار، أما **الصنف الأول** فهم المتقون، أي: المتجنبون لما يسخط الله، والمبتعدون عن حرمات الله، وذكر صفتهم أنهم ينفقون في سبيل الله في حال الرخاء والشدة، ويكتمون غيظ صدورهم، ويعفون عن الناس عند المقدرة والتمكن منهم، ولخص صفتهم بمطلق الإحسان، ثم ألحق سبحانه وتعالى بهذا الصنف الأول **صنفاً ثانياً** هم الذين تزل قدمهم في مهاوي المعصية، فيفعلون ما قبُح من الأفعال سواء أكان الزنى – على القول بأن المقصود بالفاحشة خصوص الزنى – أم كان كل قبيح من قول وفعل على القول بأن المقصود بالفاحشة كل ما قبح من الأقوال والأفعال، وهذا الصنف الملحق بالصنف الأول هم صنفٌ خاصٌ من العصاة ذكرهم الله بصفتهم أنهم بمجرد وقوع الفاحشة منهم يذكرون وعيد الله وعقوبته على عصيانه وتعدي حدوده، ويستغفرونه لما بدر منهم من ذلك، وهم مؤمنون بأنه لا غافر لذنوبهم إلا الله، ولا ساتر لها إلا الله، وهم مع هذا الذكر والاستغفار نادمون على ما بدر منهم، عازمون على ترك الفواحش، وعدم الإصرار عليها وعدم الوقوع فيها لما علموا من نهي الله عنها ووعيده لمن ظلم نفسه باقترافها.

ثم ذكر جزاء الصنفين؛ المتقين ابتداءً والمستغفرين النادمين الآيبين إلى الله انتهاءً بعد وقوعهم في الفاحشة، حيث وعدهم المغفرة والستر وأثابهم الجنة؛ المتقي منهم على تقواه، والتائب منهم على توبته. فيا لِحُسن هذا الجزاء، ويا لسعادة أهل هذه العاقبة، فيا أيها لمذنب ما يمنعك من التوبة والاستغفار مما بدر منك وقد وعدك الله تعالى هذا الوعد الحسن وأعد لك على توبتك هذا النعيم المقيم.

- قال الله تعالى: (**إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً**)[52]، وهذه الآية أصلٌ عظيم في باب التوبة والاستغفار لأنها تقضي على وساوس إبليس التي تعظم الذنوب في عين صاحبها حتى يظن أنها أكبر من أن تغتفر، ويتوهم أنها أعظم من أن يُتاب منها فضلاً عن أن يتوب الله على مقترفها، لكن المتأمل لهذه الآية يدرك أن الله تعالى إذا كان يخبر عن نفسه العلية أنه يغفر إذا شاء ذنوب من مات على ذنوبه ما لم يكن مشركاً بالله، فلأن يغفر سبحانه وتعالى ذنوب من استغفر وتاب وأناب قبل الموت أحرى وأجدر، بل إن الاستغفار قبل الموت يسع المشرك

[52] النساء - 116

والكافر إذا تاب من شركه وكفره وآمن إيماناً صحيحاً قبل الموت، فأي شيءٍ أرجى للمذنب من هذا، وأي عذرٍ يعتذر به مَن ظلم نفسه بالذنب مرة وبالانصياع لوساوس إبليس التي تؤيسه من التوبة والاستغفار مرة أخرى؟! إن منهج أهل الإسلام وعقيدتهم في كون الميت الموحِّد العاصي في خطر مشيئة الله يعذبه إن شاء ويغفر له إن شاء مبنيٌ على هذه الآية وهذا الأصل العظيم، وهنا تنبيهٌ مهمٌ يتعلق بضرورة تعهد المسلم قلبه بأسباب حفظ عقيدة التوحيد في قلبه ولسانه وجوارحه مما ينقض الوحيد بشركٍ ظاهر أو خفي فإن هذا هو الحرمان، وليعلم العبد أنه ما أعد ليوم الحساب شيئاً أعظم من توحيد الله عز وجل، والتعرف إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وليعلم أنه ما أعد لذنوبه ومعاصيه عدةً ودواءً خيراً من توحيد الله عز وجل وتخليص قلبه ولسانه وجوارحه من شوائب الشرك المحبطة للأعمال، فإن هذا هو حبل النجاة، وهذا هو سيل الخلاص، مهما عظمت الذنوب وكثرت.

- قال الله تعالى: (**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا**

إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون. واتبِعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفسٌ يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لَمِن الساخرين)[53]، وقال تعالى في سياق وصف عباد الرحمن: (**والذين لا يدْعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلْق أثاماً. يضاعفْ له العذاب يومَ القيامة ويخلدْ فيه مُهاناً. إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً. ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً)**[54]، ولقد روى الشيخان في صحيحهما عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَاسًا من أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قد قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الذي تَقُولُ وتدعوا إليه لَحَسَنٌ، لو تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَ: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مع اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ ولا يَزْنُونَ)، ونزل (قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على

[53] الزمر 53-56
[54] الفرقان 68-71

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ اللَّهِ)"[55]، انتهى. فهؤلاء أناسٌ كانوا على الشرك، وأكثروا من ارتكاب الكبائر من قتل الأنفس، واقتراف جريمة الزنى، فأنزل الله تعالى في كتابه أن طريق التوبة والمغفرة مفتوحٌ لمن تاب من ذلك كله، فلْيتُب المشرك من شركه، ولْيَتب القاتل من قتله، ولْيَتب الزاني من زناه، وليرد حقوق الآدميين إلى أصحابها من أخذ شيئاً منها، وليعتقد جازماً أن الله تعالى يغفر ذلك كله قبل الموت، ويغفر ما شاء من ذلك بعد الموت ما لم يكن مات على الشرك، فهل بقي من طريق يأسٍ من التوبة إلا وقد أغلقه الله تعالى على إبليس؟ فلا يقعنَّ مذنبٌ فريسةَ اليأس والقنوط، فإنه مهما أسرف فإن الله تعالى قد أخبر وهو أصدق القائلين أن له توبة ومغفرة.

وإن في آيتي الزمر والفرقان أعني قوله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم)، وقوله تعالى: (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) سرٌ عجيب لمن تأمله، ذلك أن العبد كلما أوغل في الذنوب والمعاصي وكررها وأكثر منها، كلما كان ذلك أدعى لليأس والقنوط لما يرى في كثرتها من استصغارٍ لنفسه واستعظامٍ لذنبه أن يناله مغفرةُ الله تعالى،

[55] متفق عليه، واللفظ للبخاري

وكأنه يرى نفس الكثرة ذنباً آخر، فأخبر الله تعالى أنه يغفر الذنوب جميعاً وذلك يشمل ذنب الإكثار من الذنوب، وهذا محضُ عفوه سبحانه وتعالى ورحمته بعباده، ولكنه مع ذلك أعطى بواسع فضله وكرمه باعثاً آخر للمسرف في الذنوب والكبائر بأن أخبر **أنه سبحانه وتعالى يقابل توبةَ عبده بالإيمان والعمل الصالح بالتوبة عليه من ذنوبه مع قلب السيئات حسنات، وهذا معالجةٌ لداعي اليأس بضده من داعي الأمل، فمن آيسته كثرة ذنوبه دعته كثرة حسناته إن هو تاب فقبل الله توبته وبدل تلك السيئات الكثيرة حسناتٍ كثيرة، فتأمل كيف قلبت هاتين الآيتين باعث اليأس إلى داعي أمل ورجاء ، فيا له من سر عجيب لمن تأمله**، ولا يدرك هذا السر إلا من تعرف إلى الله تعالى بأسمائه الرحيم والغفور والواسع والكريم ووحّده في صفاته الرحمة والغفران والسعة والكرم، فالحمد لله على ما هدانا إليه،وله المن والفضل فيما وفقنا للإيمان به وتوحيده به من أسمائه القدسية وصفاته العلية.

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي"[56]، وهذا الحديث بشارةٌ عظيمةٌ أخرى لمن أحزنته ذنوبه، وغلب عليه ظن العقوبة من الله وهو سبحانه غير ظالمٍ له، فإذا بباب الأمل مفتوحٌ، وحبل النجاة ممدودٌ بهذا الخبر عن الله تعالى، أنه تفضل على عباده بمعاملتهم برحمته عز وجل مع استحقاقهم آثار غضبه، ومن تعرّف إلى الله تعالى بهذا المعتقد الذي أخبر عنه المعصوم ﷺ فحريٌ به أن يبادر إلى اللياذ برحمة الله، وسلوك طريق الاستغفار والتوبة والإنابة إليه سبحانه، فمن كانت هذه صفاته، فكيف لا ينيب إليه مَن زلّت قدمه فعصى، وغفل قلبه فهوى. فالأمن الحقيقي من غضب الله إنما هو بمثل هذا الاعتقاد الذي أخبر به رب العزة عن نفسه على لسان نبيه ﷺ أن حظ عباده من رحمته أوفر من حظهم من غضبه، فلتسارعي أيتها النفس الخاطئة إلى رحمة الله، ولتسارعي أيتها النفس الخاطئة إلى التوبة النصوح والاستغفار الدائم عسى الله أن يتداركك برحمته، وأن يقيَك غضبه، فتفوزي بالرحمة والمغفرة على ما بدر منك، وأما من استسلم للشيطان، وغلبه داعي اليأس، ولم

[56] متفق عليه

يتعرف إلى الله باسمه الرحيم وصفته الرحمة، فأي خسارة قد منيت به نفسه، وأي ظلم قد ظلمها بعد ظلمه الأول إياها بالمعصية، عياذاً بالله من ذلك.

- عن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: يقول الله عز وجل:"من جاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جاء بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أو أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ منه ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ منى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منه بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأرض خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شيئا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً"[57]، وقال أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: "يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"[58] ، هذان الحديثان أملُ كل موحِّدٍ لله تعالى، مخلصٍ له في توحيده، نقيٍ قلبه من شوائب الشرك به، وهما شاهد سعة رحمة الله عز

[57] صحيح مسلم – حديث 2687
[58] سنن الترمذي – حديث 3540

وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى عن الظلم الذي قد يتوهمه بعض عبيده، تعالى الله عن ذلك علّواً عظيماً، وكيف يتبادر توهم الظلم إلى قلوبٍ عرفت أن الله تعالى فاطرها ومنشئها من عدم، ومالكها دون شريك أو منازع، فهو سبحانه حيث يتصرف في عبيده إنما يتصرف في ملكه، فلا يمكن أن يتبادر نسبة الظلم إلى الله إلا كما يتبادر نسبة العدوان على من يتصرف في ملكه. ولكن **السر العظيم في هذين الحديثين يدور حول توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته،** فهذا التوحيد بمراتبه الثلاثة هو الدواء لداء الذنوب، وهو الشفاء لمرض المعاصي، وكلما تحققت مراتب التوحيد هذه في قلب المكلف، كلما اقترب من إدراك سر هذه البشارة العظيمة بالمغفرة على الذنوب مهما بلغت، وعلى محو الخطايا مهما كثرت، طالما أن المكلف يأتي الله يوم القيامة بقلبٍ سليمٍ من الشرك، خالٍ من شوائبه. وهذا الموضع جدير بالتدبر والاستفاضة بعض الشيء؛

فأما **مرتبة توحيد الربوبية** فكلما عرف المكلفُ اللهَ بأنه وحده الخالق المالك، عرف أن الخلق والأمر له وحده، وأدرك أن ما توعّد الله تعالى به

عباده من الجزاء والعقوبة على الذنوب والمعاصي هو محض تصرفه في ملكِه، لا شريك له في خلق ذلك، ولا معقب لأمره في ترتيب العقوبة على ذلك، فإذا استقر توحيد الله رباً بهذا المعنى أدرك –كما تقدم – أن لا ظلم من الله تعالى على تقدير الذنوب، ولا ظلم من الله تعالى على ترتيب العقوبة على الذنوب، بل الظالم هو العبد الظالم لنفسه الذي تبع هواه فسقط في المعاصي، وغفل قلبه فاقترف الذنوب، فإذا عرف المكلف ذلك أدرك أن هذه الذنوب والمعاصي لا تنقص من ملك الله شيئاً، ولا تضر الله شيئاً، كما أن الطاعات والصالحات لا تزيد في ملك الله شيئاً، ولا تنفع الله شيئاً، وهذه نقطة البداية التي يقرُّ عندها المذنب بظلمه نفسَه، ويوقن أنه لا يملك لنفسه خلاصاً من آثار هذه الذنوب إلا بالفرار إلى الله تعالى، واللجوء إليه، والاستعاذة به مما ظلم نفسه به، والاستغفار والتوبة إليه لما بدر منه.

وأما **مرتبة توحيد الألوهية** فتتمثل بالإخلاص الكامل لله تعالى في التوجه إليه بالإنابة والتوبة والاستغفار، فإنه لما عَلِم أن لا رب سوى الله تعالى، فلا بد من أن يتوجه إليه موحِّداً القصد والدعاء ليغفر الله له ذنبه

ويمحو معاصيه، فمن أفاق من غفلة المعصية ليسقط في هفوة الشرك بالدعاء إلى غير الله لغفران الذنوب فإنما ظلم نفسه ظلماً أشد وأقبح من ظلمه إياها بالمعصية، بل إنه لو مات عاصياً موحِّداً خيرٌ له من أن يموت تائباً مشركاً، فليتنبه العاصي والمذنب لهذا فإنه بابٌ عظيمٌ يزل فيه كثير من الناس، تأمل قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:" يا ابن آدم إنك ما **دعوتني ورجوتني** غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم **استغفرتني** غفرت لك ولا أبالي" لتدرك أن مغفرة الذنوب إنما تُطلب من الله تعالى وحده، وأن الرجاء والاستغفار لا بد من أن يتوجه إلى الله تعالى وحده، وأن الوعد بالمغفرة معلقٌ بتوحيد القصد والرجاء والدعاء لله تعالى وحده لا شريك له، وهذه **قاعدة عظيمة في الاستغفار أعني تحقيق توحيد القصد والدعاء عند طلب مغفرة الذنوب.**

وأما **مرتبة توحيد الأسماء والصفات** فرياضُ قلب المؤمن، ومحلُ راحته وسكينته، فإن من تأمل دعوة الله له بتوحيده في طلب المغفرة، أدرك أنه يعبد الله وحده لا شريك الله الغفار فأحبه لهذا الاسم، وأدرك أنه يعبد

الله وحده لا شريك له الذي صفته المغفرة فأحبه لهذه الصفة، ومن أحب الله تعالى وأثنى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى فقد حقّق التوحيد، وإذا حقق التوحيد فقد دخل في وعد الله تعالى بالمغفرة على الذنوب مهما عظمت ومهما بلغت، وهذه البشارة العظيمة لكل مذنبٍ، ولكل عاصٍ مهما أذنب وعصى، فإن الله تعالى يخبره على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أن له أوبة، وأن له توبة، وأن اسم الله الغفور يناله، وأن اسم الله الرحيم يناله، إذا هو وحَّده رباً وإلهاً مقدسةً أسمائه عليةً صفاته سبحانه وتعالى.

فهذه مراتب التوحيد وهذا أثر من آثارها العظيمة، ويجدر التنبيه على أنه كلما كان المكلف أشد تحقيقاً للتوحيد قبل الوقوع في المعاصي كلما كان أسعد حظاً بالتوفيق بها إلى بلوغ شاطئ التوبة والمغفرة، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى فيما سلف.

هذا ما يسر الله تعالى خطُّه، وهذا ما فتح الله تعالى به من واسعِ فضله، وجليل توفيقه بهذه الرسالة المختصرة في التوبة، كتبها مَن نفسُه ظالمةٌ بالمعاصي، يرجو بها له ولإخوانه في الله المغفرة والتوبة والتوفيق للعمل بها، وأن يجعلنا ممن لقيه

مؤمناً به وحده لا شريك له فيلقانا بفيوض رحمته ومغفرته على ما تقدم من الذنوب، إنه وحده الغفور التواب الرحيم، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتب أفقر خلق الله

وسيم فتح الله

16 ذي الحجة 1438 هجرية/ 7 سبتمبر 2017 م

الفهرس

مقدمة	2
فصل: في مشهد توبة الملائكة	6
فصل: في مشهد خذلان إبليس وعدم توفيقه للتوبة	11
فصل: في مشهد توبة آدم عليه السلام	14
فصل: مقارنة بين توبة الملائكة وتوبة آدم عليه السلام	16
فصل: في مشاهد توبة الأنبياء والرسل	19
توبة نوح عليه السلام	21
توبة إبراهيم عليه السلام	24
توبة يوسف عليه السلام	27
توبة يونس عليه السلام	30
توبة موسى عليه السلام	32
توبة داود عليه السلام	35
توبة سليمان عليه السلام	39
استغفار عيسى عليه السلام	41

استغفار خاتم المرسلين مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ 44

فصل: في مشاهد عظيمة من التوبة في القرآن الكريم 48

توبة سحرة فرعون 48

توبة قوم يونس 58

توبة الثلاثة الذين خُلِّفوا 61

فصل: نصوص عظيمة الرجاء في التوبة والمغفرة 77